رحلة داخلية

(رواية)

تأليف

داليا رأفت

السعيد
للنشر والتوزيع

اسم الكتاب / رحلة داخلية
الكاتبة / داليا رأفت
الطبعة الأولى 2019
تصميم الغلاف : محمد محسن
المراجعة اللغوية : داليا رأفت
رقم الإيداع : 2019/20605
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 6727 - 64 - 9
التصنيف: رواية
الناشر : السعيد للنشر والتوزيع
المدير : لميـــاء السعيـــــد

برج الهادي – الدور الأول - 36 ش عبد الحميد الديب – شبرا مصر

01550096215 - 0222017260

elsaidpublisher@gmail.com

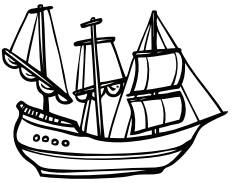

.....

(1)

بداية الرحلة

انتفضت، وكأني لُدغِت، على أثر تلك المكالمة التي أجرتها سلوى معي، تخبرني أن عليَّ الحضور على وجه السرعة.

رقم غريب غير موجود على ذاكرة هاتفي باسم، لم أهتم بتسجيل رقمها وهي كذلك. تُرى! هل الأمر خطير؟ أم كالمرة السابقة التي هاتفتني فيها من جوال أبي؛ تخبرني أنه مريض، وعندما وصلت وجدته قد أجرى عملية بسيطة بقلبه وركب له الطبيب دعامة. تصنعتْ الحزن والبكاء، وجاهدت لإقناعي بخطورة وضعه الصحي؛ لتستطيع اقتناص مبلغا من المال من حافظة نقودي أو أن أوقع لها شيكا.

لكن الحقيقة أن هاتيك مرة أقلقني صوتها، وشعرت بعدم ارتياح ربما الأمر أكثر خطورة.

اتكأت على قلقي، ارتديت ملابسي على عجل، استأذنت أخي العزيز وصديقي الوحيد (إختيار) وزميل عملي كذلك، في

أن أتـرك الفنـدق والفـوج الفرنسـي المسـؤولة عنـه، وأرمـي بـكل أعبائي على كتفه بكلماتٍ مقتضبة وأغادر.

مـاذا يمكننـي أن أسـتخدم مـن وسـائل المواصـلات؟ وأنـا هنـا بجنـوب سـيناء! وأريـد الوصـول لمدينتـي الصغيـرة، التـي بأقصـى نقطة في الشمال.

حافلـة عـم أنيـس؛ إحـدى الحافـلات التـي تقـوم بالرحـلات الداخليـة؛ هـي ملـك لإحـدى الشـركات لكننـا نعتبرهـا ملـكا خاصا له.

مؤكـد لديـه مـكان يصلـح لـي، سـافرت معـه مـرات قليلـة قبـل ذلـك، يقـود بتـؤدة وهـدوء وسلاسـة، لديـه نظريـة فـي القيـادة لا يمل مـن عرضهـا علـى ركابـه: أن السـرعة الجنونيـة ليسـت إلا بطئ متخـف؛ لأنهـا تحمـل فـي ثناياهـا حـوادث وكـوارث؛ تجبـر المتسرع على الوصول دائما متأخرا.

إنزعـج الرجـل مـن أجلـي؛ عندمـا رآني أنـوي العـودة معـه دون سـابق ميعـاد، علـم أن هنـاك شـيء غيـر طبيعـي وغيـر جيـد، لـم يسأل لكني حكيت له ما حدث.

تأسـف.. عـرض خدماتـه لمواجهـة محنتـي، أسـكنني أحـد مقاعـد حافلتـه وانطلـق بنفـس طريقتـه مطبقـا نظريتـه. كنـت مـن مكانـي أسـتطيع رؤيتـه فـي المـرآة بنظارتـه الكبيـرة ذات الإطـار الأسود السميك التي تبدو كعيون إضافية.

كان الصبح يتنفس بخارا كأن الليل كان يغلي على موقد، ينفث زفيره كرجل غاضب يستحيل لهيب غضبه لدموع خلف زجاج النافذة بجواري.

يصدم عم أنيس الضباب، فيشقه نصفين فتزيد الدموع على الزجاج.

رأيت نفسي وسط البخار الكثيف تائهة، لا تُميز طريقي ملامح، أو علامات ترشدني، ربما لأني عشت مغتربة طوال حياتي ومنذ طفولتي غريبة بين أبي وأمي وفي بلدي وبيتي وعلى سريري بحجرتي. طاردتني الغربة ، وصاحبتني وسكنت أعماقي.

لا أعلم تحديدًا، متى بدأت غربتي، ولا كيف بدأت، لكن كل الأحداث، والحوادث التي مرت بي، ومررت بها، كانت دائما تسير بي تجاه الغربة التي اختارتني حينا، واخترتها حينا.

رأيت أمي دائما على صواب، إتخذت منها مثلا أحتذيه، أسير خلفه، يهديني، ودون قصدٍ عندما أقلدها. ذاكرت، قرأت كثيرًا، بحثت دائمًا، أبحرت في كتبها دون كلل، في سعادة، سعادة من له هدف يسير على هديه في طريقه ليحصل على سعادةٍ أكبر عندما يصل لذاك الهدف ويتم له تحقيقه.

ووصلت أمي لذلك المرمى الذي قصدته، بعد مواصلتها لدراستها العليا وحصولها على الماجستير. لكن لم تتغير حالتها

الوظيفية كمعلمة لذوي الاحتياجات الخاصة، غير بعض جنيهات أضيفت لمرتبها. وكان أبي شامتًا؛ لأنه نهاها وأنبها على تضييع مجهودها ووقتها دون جدوى في حين كانت هي مصرة أن هناك دائمًا فائدة.

وعمل أبي على بث الإحباط لروح أمي المكافحة، يؤكد لها أنه ينصحها بصدق، وأن ما قامت به من مجهود في الحصول على درجة علمية متميزة، لن يؤتي الثمرة التي تحلم بها، لأن لا أحد يهتم، والدليل أنها لم تجنِ سوى الإهمال.

الغريب أن أمي لم تصب بإحباط، كرجل غرس بذوره في صحراء، فاتهمه المحيطون بالخبل، لكنه استمر، وكأنه لا يسمعهم. أكملت السير بطريقها وتقدمت بأوراقها للحصول على الدكتوراة، كذلك تقدمت بأوراق للخارج؛ للحصول على فرصة عمل تناسب قدراتها وإمكانياتها، وشهادتها الجديدة.

قابلت تحديات كثيرة وعراقيل كبيرة في العمل، والجامعة والبيت؛ فكانت تواجهها بالصبر والمثابرة ومزيد من الجد والاجتهاد.

صارت فرحتها لا توصف عندما جاءها الرد على مثابرتها، ومواظبتها، وأثمرت شجرتها التي غرست بذرتها، وتأكد للجميع رجاحة عقلها. إحدى جامعات دولة عربية طلبتها لتُدَرِس بها.

كان عليها أن تخوض امتحان وتجتازه، حدثت أبي طلبت مساعدته؛ فأخبرها أن لا تعتمد عليه؛ فهو غير مقتنع، وغير مرحب بأمر السفر وعليها أن تتصرف وحدها، حاولت إقناعه بالعائد والفائدة التي سنجنيها جميعا، لكنه قال: أنه لايطمع في شيء واتهمها بالمادية واللهث وراء المال؛ فاتهمته بالكسل والتواكل. ومنذ ذلك الحين، وكل مناقاشاتهما تنقلب لخناقة تبكي أمي على أثرها حينا وتكظم غيظها، وتحايل أبي وتتظاهر بموافقتها على أرائه حينا؛ حتى تضمن عدم عرقلته في موافقته على السفر معها.

شاهدت عيون الدنيا تتفتح، والشمس تنبت في الأفق وعم أنيس يسير محتضنا وحافلته الطريق.

لا أعرف لِمَ دائما تقفز ذكرياتي بذاكرتي حينما أكون وحدي، تظل الذكرى تطاردني راكضة بين جنبات عقلي، تعيد المشاهد وتعيدها كأنها تخشى وقوعها، أو ضياعها.

لكني أستمتع بذاك التكرار وإعادة العرض؛ فكل مرة تعاد فيها أرى جديد يستحق المشاهدة.

عم أنيس يرمقني بين الحين والآخر، وأمي كانت ترمقني أيضا وهي تحضر حقائب السفر بعد أن نجحت بالإختبارات وأدت بتفوق.

لقد جعلني أبي أحد مشاكل أمي واتهمها أنها لا تعتني بمصلحتي ....

– كيف ستتكيف في جو غريب وأشخاص غرباء وبلاد غريبة؟ أيعقل أن أول دخول لها بالمدرسة يكون هناك مع زملاء لا يعرفونها ولا يفهمونها!

– سألتني أمي عن رأيي، لم أع كلمات كثيرة قالتها، لكني تشبثت بعنقها وأحكمت زراعي، واحتضنتها بيدي الصغيرة فرمت لأبي نظرة انتصار تجاهلها وتحدث في مشكلةٍ أخرى.

حدثها عن عمله، وصعوبة حصوله على أجازة طويلة، وهل سيجد عمل هناك أم سيقوم بدور الزوجة والخادم؟

جاهدت أمي أن تُرضي أبي وترضخ لأوامره ونواهيه حتى لا يعثر سفرها، أو يعوقه كحصان مقيد بعربة يجرها بحملها؛ ليرضي صاحبه. في حين يتلذذ بذلك ويزيد من تسلطه، وفرد سلطاته وسلطانه ويتربص بكل التفاصيل الدقيقة والتصرفات العادية ؛ كأنه ينتقم منها ويرغمها على دفع ثمن موافقته على سفرها ومرافقته لنا.

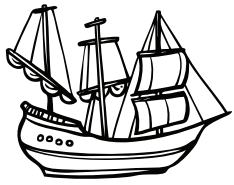

(2)

حرب وندم

الطريق ممتد لامع والحافلة تنزلق عليه كأنها تسير فوق الزبد.. كالطرق الملساء هناك في مقرنا الجديد، توصلني أمي يوميا لمدرستي ثم تذهب لعملها؛ الذي كانت كل يوم تحكي لنا عن إنجازاتها ونجاحها فيه؛ فأسعد أنا لسعادتها ،ويغتاظ أبي ويزيد حنقه، وبات كل يوم وساعة وربما كل دقيقة، يتبرم من وضعه الشاذ ويعرض كم كان مشغولا، يعمل بوظيفة محترمة وله قيمة وكيان، أماالآن هو مجرد عاطل من أجل إرضاء مطامح وتطلعات زوجته.

ورغم شعوري بعدم الألفة مع الزملاء في المرسة، وكذلك وجدت من الصغار بعض الصلف لا أعرف أكان مقصودا، أم خلقته في خيالي؛ نتيجة اختلافي عنهم في الشكل، واللهجة، إلا أني حبست كل ذلك داخلي، وأحكمت عليه الغطاء؛ حتى

لا يتطاير رزازه؛ فيفسد عليها نجاحها، أو يُحفز أبي لمزيد من الضغط عليها.

بعكس أبي، كان يتكلم كثيرًا، يتذمر معظم الوقت، تحاول أمي بكل طريقةٍ إرضاءه، دون المساس بطموحها أو التخلي عن أحلامها، ولم يكن أبي ليرضى؛ إلا بالتنازل عن هذه الأحلام والتفرغ التام له والاستسلام الكامل لأفكاره التي ترسم لها طريق وتبني لها سقف لا يجب تعديه.

امتلكت أمي حجة ذات بنيانٍ رصين، عالٍ لم يقدر أبي على هدم أركانها، وأبَى تسلقه. وهي لا تتنازل عن حقها مطلقًا كما لاتغمط حق الآخرين؛ لذلك قامت بكل مهامها من طهي وتنظيف ومتابعة دروسي ومشاركة أبي أوقاته والحرص على عمل كل ما يحب ويهوى وكذلك تقرأ وتذاكر وتعمل.

وأبي يبحث عن نواحي تقصير يلطخ بها تفانيها.

وجدت أمي دائما إمرأةٍ فريدة تصنع المعجزات كل يوم، لم يكن حبي لها لأنها أمي يساوي إعجابي بها ورغبتي أن أكون مثلها تمامًا؛ فصرت دون أن أدري أحاكيها في كل حركاتها وتصرفاتها وطريقة كلامها، وسميت دميتي باسمها.

كل يوم جديد كان يحمل حرب جديدة تخوضها أمي؛ لتثبيت مكانتها في عملها، وجعل أبي على القطبان مستقيم؛ حتى لا تنحرف قاطرة الأسرة عن مسارها وتنتج حادثة.

استطاعت أمي في شهور قليلة أن تجد فرصة عمل مناسبة لأبي عن طريق معارفها الجدد ورؤسائها بالعمل الذين أعجبهم ذكاءها، علمها، وعملها الجيد والجاد. فقد تميزت بسهولة ؛لأنها تمتلك روحًا غير عادية.

توقعت أمي أنها حلت مشكلة أبي، لكنها كانت واهمة؛ فسرعان ما عاد لتسخطه، وتبرمه من كل شيء؛ الجو الحار، قسوة شروط العمل، التعامل الجاف من الزملاء، عدم القدرة على التعود.

عادت أمي تشجعه وتحثه على الصبر ومحاولة التأقلم ومنح الأيام فرصة لعلاج خدوش بسيطة في وجه الحياة . كان يتظاهر بالصمت وما يفتئ يعود للشكوى بعد أيامٍ قلائل.

أصبحت أمي بعد ثلاث سنوات من العمل المتواصل والجهد الشاق؛ ذات مكانة مهمة؛ صارت من واضعي أسس المنهج الدراسي لذوي الإعاقات، وألفت كتابا تعليميا في التربية الخاصة، كتب عليه اسمها؛ فكان هذا مدعاة لفخري ومثار اعتزازي. كنا خلال هذه السنوات الثلاث نعود لمدينتنا نقضي بها فترات العطلة.

وجاهدت أمي في كل مرة لأن تعيد أبي معنا. يتمنع، يتذرع بأسباب وحجج لأن يبقى ونبقى معه، لكنه كان في النهاية يغير قراره بإلحاح ومحايلة من أمي، كأنه كان فقط يريد قهرها وإذلالها.

فـي كل مـرة كان فيهـا أبـي يتصـور أن بإمكانـه إقنـاع أمـي برأيـه ورغبتـه، كانـت أمـي تعيـده لنفـس النقطـة التـي بـدأ منهـا فتجـادل وتجيـب علـى أسـئلته بأسـئلة ثم تطـرح هـي أسـئلتها التي لا يسـتطيع هـو حلهـا كأسـتاذ يناقـش الفلسـفة لطفـل فـي الخامسـة، وكان يغيـظ أبـي هـذا ويسـميه سفسـطة، لـم يكـن يعتـرف أبـدا بإخفاقـه فـي منازلتها في ساحة المناقشة، وفشله الدائم في إقناعها برأيه.

حدثنـي أبـي ضمـن المـرات القليلـة التـي حدثنـي فيهـا بطلاقـة قائـلا: لقـد اختـرت أمـك فتـاة جميلـة، قلـت لنفسـي الفتيـات الجميـلات يقتصـر إهتمامهن علـى أمـور الزينـة والأزيـاء وصيحاتها، وعندمـا أخبرتنـي برغبتها فـي مواصلـة دراسـتها العليـا لأن الجامعة رفضـت تعيينهـا لعـدم احتياجهـم لمعيديـن، تخيلـت أنهـا تتباهـى بتفوقهـا أمامـي ومـا إن تتـزوج وتنشـغل ببيـت وأولاد حتـى تنسـى هذا الهراء، لم يخطر ببالي أنها كانت جادة فيما صرحت به.

شـممت رائحـة نـدم في طيـات كلمـات أبـي كالتـي كنت أحسـها في تصرفاته وتحكماته

لكـن لـم أكـن أعـرف إن كان نـدم مـن صبـره عليهـا طـوال فتـرة زواجهمـا، أم نـدم علـى زواجـه بهـا أصـلا وهـو يعلـم نيتهـا فـي مواصلة التعلم، وعدم الاكتفاء منه والاستفادة مما تعلمت.

وبـدا أبـي لـي متـرددا، متحيـرا، باحثـا دومـا عـن شـيء غيـر موجود.

ربما أزاد نجاح أمي الملحوظ، حيرته، ضيقه، وعدم قدرته على مقاومة شعور الغربة الذي أضحى حديثنا اليومي، رغم تعجب أمي من شعوره هذا حينما قالت له : أين تلك الغربة؟

ألسنا كلنا هنا !

كما أخبرته أن فرص العمل الجيدة والممتازة لا تسنح دائما للجميع، والمال الذي استطاعت توفيره بعد كل مصروفاتنا، والتي حققت بها كثير لم يكن ليحدث لو ظلا بنفس مكانهما طوال العمر، فقد تمت دفع كل أقساط شقتنا التي عاشا فيها سبع سنوات ولم تكتمل، غيرت الكثير من أثاث البيت، الذي كان بدائيا، وبسبب ضيق الحال، كما ذكرته بأننا محط أنظار المحيطين، ومثار لغيرتهم، وأن غيره يتمنى نصف ماهو ونحن فيه.

كانت تشير في كلامها هذا إلى عموم المعارف والأقارب وخصوصا كانت تقصد خالي وزوجته.

كعادتها كانت تفند حججه، وكان هذا يثير غضبه، وتمسكه بالعودة دون الخضوع لمجادلات، كان مشبعٌ بيقين أنه دائما مايخسر أمام أمي في أي مناقشة.

فاستخدم بعنجهية سلاحه الذي لا يملك غيره، وهو سلاح سطوة الزوج وكلمته النافذة على زوجته؛ التي يجب عليها الخضوع لها وطأطأة رأسها والإذعان دون اعتراض.

فقرر أثناء أجازتنا الثالثة عدم العودة مرة أخرى.

قرار مفاجئ رغم أن الرغبة فيه لم تكن مفاجئة

استيقظ أحد صباحات عطلتنا الصيفية التي كنا نقضيها ببيتنا وسط زيارات الأقارب والأصدقاء المتكررة، ألقى قرارة بوجه أمي في انتشاء المنتصر، وصم أذنيه عن توسلاتها، واستجدائها، وكأنه أعلن تمرده على أساليبها الذكية التي تلتهم أسبابه دائما.

لكنه سافر معنا لآخر مرة؛ لإنهاء متعلقاته هناك، عاد سريعا؛ ليعيش وحيدا، ملقيا ذنب تشتتنا على ظهر أمي. كلمات وداعه قبل المغادرة كانت لوم على خطئها الفادح، وعدم تقديرها للأمور وانانيتها.

لم تسعد أمي بوحدتها معي، فقد كان أبي رغم ما كان، له دورفي حياة أمي، مطمئنة بوجوده وكل ما صنعه لا يمنع أنه كان رب أسرة مخلصا لأسرته.

أصبحت أمي تقوم بعمل كل شئ، وتتحمل كل الأعباء؛ فأرسلت إلى خالي الذي كان يتمنى تلك الفرصة، ويلمح بطلب السفر، وتلح زوجته فيه وتصرح.

لم يكن سهلا إيجاد عمل مناسب لخالي؛ فمؤهلاته عادية، ومتوفرة؛ لذلك وصل خالي إلينا، وظل فترة دون عمل؛ فاستطاعت أمي أن تجعل منه سكرتيرا ومحاسبا خاصا

خاصة بعد أن قررت مشاركة بعض أصدقائها في مشروعات هي غير متفرغة كليا لها.

ورغـم أن البيـت كان غريبـا لأول مـرة بعـد خلـو مـكان أبـي، إلا أن خالي ساعد على سيادة الهدوء؛ لعدم استثارته أمي نهائيا

والعمـل علـى راحتهـا، وطاعتهـا، وأحيانـا تملقهـا، حتـى أن الأمر وصل إلى تملقي أنا.

لـم يدخـر خالـي جهـدا فـي محـاولات إسـعادي، واسـتمالتي، وجعلـي لا أسـتغنِ عنـه، لكنه رغـم اسـتماتته لم يسـتطع تغييـر قلبي تجاهـه، أو مبادلتـه وده؛ لأنـي لـم أتعـود منـه علـى كل هـذا العطف والمودة من قبل.

كفـت أمـي عـن المناقشـات، والمجادلـة التـي نَسـجت شـطرا مـن حياتنـا واكتفـت بتوجيـه الأوامـر، تحديـد الطلبـات، فينفذهـا خالي فورا دون غضاضة.

صارت أمي أكثر حرية، أكثر هدوءا، وأكثر تعاسة.

كذلـك أنا بـتُ أشـعر بهـدوء لـم أحسـه مـن قبـل، لكن شـعرت كذلك بأننا أصبحنا أكثر غربة، وغرابة.

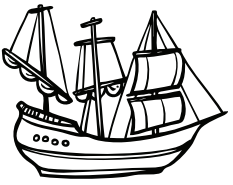

(3)

عـــودة مؤقتـــة

نقطـة تفتيـش علـى الطريـق، روتيـن، ودائمـا يوهـم المفتـش الناس أنـه منهمـك يبحث عن شـيء، وفـي الحقيقـة أراه يـؤدي دور الحـارس الأميـن بدقـة، أشـفق عليـه مـن دقتـه، وأكـره نظرتـه المضطـر فيهـا الارتيـاب مـن الجميـع، هـي نفـس نظـرة المفتش في المطـار، اعتـدت نظراتهـم مـن تعـدد سـفراتي، في يـدِ أمـي حريصةٌ علـيّ كأهـم متـاع تحملـه، متجهمـة بنظارتهـا السـوداء؛ التـي تداري ملامحهـا، وخالـي يـدور حولنـا ويقفـز، يراقـب الحقائـب، يتابـع الإجـراءات كمسـتخدم يؤكـد تفانيـه حتـى لا يسـتغنى عنـه مديـره. كانت عطلتنا الرابعة، والأولى بدون أبي.

نظـرت أمـي حولها تبحـث عـن أبـي، لكنه لـم يـأتِ لاسـتقبالنا، وقـد قـدم أسـباب لعـدم مجيئـه حيـن أخبرتـه أمـي بموعـد زيارتنـا تحديـدا، لكنهـا رغـم ذلـك بحثـت عنـه، وحزنـت لتنفيـذه لقـرار عدم المجئ

سافرنا من القاهرة حتى مدينتنا مباشرةً، وقد نظر كل منا من نافذته دون كلام تقريبا.

استقبلنا أبي استقبال حار، وخصوصا أنا، وجدت بالبيت أيضا زوجة خالي، وسيدة غريبة معها حضرتا لتنظفا، وتطهيا، وتجهزا البيت لاستقبال العائدين.

أبدت زوجة خالي حبها لي ولأمي وامتنانها، ثرثرت قليلا عن إنجازتها في تجهيز البيت وترتيبه، ثم أخذت زوجها والسيدة الغريبة وغادرت.

حاولت أمي منذ البداية، نسيان كل شيء عما مضى، منذ آخر مشادة بينهما قبل رجوع أبي، وحتى رفضه استقبالنا بالمطار. تعاملت بطبيعية وكأن شيئا لم يكن، عملت على تعويض ابتعادنا عن بعضنا، نظمت رحلات تجمعنا، زيارات عائلية لأقارب أبي خصوصا، طهت بيدها أصنافا عديدة، جديدة ولذيذة، حتى أنها قصدت الابتعاد تماما عن مكتبتها، لم تقترب من كتبها ولم تمسك قلما، أجلت كل مايخصها من زيارات للجامعة، ولمشرف رسالتها ؛ حتى تستمتع معنا بالوقت، وترضي أبي، وأبعدت تماما أي كلام عن رغبتها في معاودة أبي التفكير في قراره والرجوع معنا.

إلا أنه وعند اقتراب موعد سفرنا، بسط أمام أمي اقتراحه الذي كان في واقعه أمرا.

أخبرها برغبته في الإحتفاظ بي، وسفرها هي وخالي فقط متعللا بي...

– أريد ابنتي معي، ما الذي يجبرني على العيش بدونها، ورؤيتي لها وهي تكبر.

فبدأت أمي تحاور وتناقش وتناور مستخدمة قدرتها على الإقناع، وحجتها القوية والتي تعطلت بعد سفر أبي، ولم تحتجها قط ولم تلجأ إليها مع أخيها المطيع.

أخذت تصول وتجول بكلماتها الرنانة وأسلوبها الهادئ الممتع، المؤثر وكأنها تلقي محاضرة أمام مدعويين: وماذا عن مستوى التعليم، المستوى المعيشي، الرفاهية، الراحة، المركز المرموق، الوضع الإجتماعي ووجاهته والذي وصلت له والذي لابد أن تتمتع به ابنتي! أليس لذلك كله قيمة لديك؟ ثم ذيلت محاضرتها بعدم قدرتها على الابتعاد عني، ورعايتها لي، وحرصها على رسم مستقبلي بدقة.

سمع أبي المحاضرة التي اخترقت مسامعه، وربما أصابت مخه بارتجاج..ثم أعاد اقتراحه، دون كلمات مرتبة كثيرة، ثم مالبث الاقتراح أن صُبغ بصبغة الإلزام، لكن أمي كانت تقف كحائط صلب لاتؤثر به الأوامر والنواهي، يُقذف بحجر فلا يتأثر، بل ويعيد الحجر بوجه راميه فيفاجأ ولا يستطيع الفكاك، أو إعادة الضربة مرة أخرى.

لـم تهتـز أمـي كعادتهـا، ولـم تظهـر متاعبهـا، عندمـا هـدد أبـي بالشـرع والقانـون فـي أحقيتـه الاحتفـاظ برعايـة طفلتـه وعـدم الموافقـة علـى ابتعادهـا عنـه سـنة بأكملهـا، هـدد كذلـك بجلسـة عرفيـة بيـن العائلتيـن؛ لإظهـار قسـوتها أمـام النـاس، وإغماطها حقه في ابنته الوحيدة.

إختـار أبـي الوقـت المناسـب لتنفيـذ خطتـه؛ قبيـل السـفر بأيـام قليلـة؛ لتكـون علـى عجلـة مـن أمرهـا؛ فـلا تؤجـل، ولا تماطـل؛ فتسـافر، وتعـود سـريعا، تعـدل عـن قناعاتهـا مـن أجلـي. كان هـذا تحليل أمي لموقف أبي.

أمـا أنـا فلـم أكـن متأكـدة مـن إجابـة سـؤالي: هـل أبـي يحبنـي لهذه الدرجة ؟أم أنا فقط وسيلته في الضغط على أمي؟

سـافرت أمـي وحدهـا مـع خالـي تنـزف خذلانـا، وشـقاء. بقيت وحـدي مـع أبـي الـذي قـدم أوراق التحاقـي بمدرسـة، وتولـت زوجـة خالـي مهمـة رعايتـي، لكنـي لـم أكـن أطيـق وجودهـا وكذلـك أبـي، غيـر أنهـا كانـت تتغافـل هـذا وتصـر علـى إدارة شـؤوننا، ربمـا لتـرد جميـل أمـي عليهـا وزوجهـا، أو حتـى تضمـن استمرار عطايا أمي ومنحها.

مدرسـتي كانـت الأفضـل فـي المدينـة، لكنهـا كانـت متوسـطة بالنسـبة لمدرسـتي فـي الخـارج، لـم أسـتطع تكويـن صداقـات مـع أحـد، كانـوا جميعـا مزعجيـن، أكثـر مـا كان يضايقنـي هـو

ضوضاؤهم المستمرة، دجاج هائج بلا سبب، كانوا مرحين أكثر من الازم.غير ذلك لم يكن يهمني.

كانت زوجة خالي «نبيلة» تحضر معها ابنها «أشرف» ليذاكر معي ولم أكن أطيقه كما أمه، تحاول وتجبره أن يكونا لطفين معي، لكن الطبع غالبا كان يغلب التطبع وتعود لزوجتهم تصيبني بالاشمئزاز.

أما أبي فقد كان يغدق عليّ حبا بلا حساب؛ فيغرقني، ويبتعد حد الجفاف، حاول تعويض مكانة أمي مع عدم إتلافي بالتدليل فكان دائما غير متوازن، غير محايد، مترنحٌ في محبتي بين أقصى اليمين وأقصى اليسار، بعكس أمي كانت تعرف متى تهدي حبا ،حنانا ودفئا واهتمام دون مبالغة، أو نقصان، كما تعلم كيف تُوجه، وتُعلم، الرضا والغضب لديها بموازين لا تختل أبدا.

فكان يبدو لي أبي يجهل كيف يحبني. لكنه مقتنع أن وجودي معه أفضل لي.

عادت أمي في العطلة الخامسة، ذابلة، مشتتة، تفتقدني حد الجنون، رغم مهاتفتها لي يوميا، وفي اليوم أكثر من مرة. خائفة من أمور كثيرة؛ أن يكون اختيارها الذي أُجبرت عليه بتركي خاطئ، أن أكون على غير مايرام نتيجة ابتعادي عنها، خائفة من عدم معرفتها نية أبي وما يخطط له هذه المرة، خاصة وهي لم تسر على الخط الذي رسمه لها وكان يتوقعه منها، ولم تعد مسرعة من أجلي كما هداه عقله.

قابل أبي أمي بود شديد ولهفة، سعيد، وفخور؛ فهو لأول مرة يستطيع إجبارها على تصرف لا تريده.

أما أمي فقد كانت شاحبة، تعيسة. اكتشفت ساعتها؛ أنه لا يمكن لأمي وأبي أن يتآلفا، لا يمكن لأحدهما أن يحيا سعيدا إلا على حساب بؤس الآخر ومعاناته.

انتظرت أمي في ارتباكٍ غير مألوفٍ منها، قرار أبي بشأني وشأنها. لأول مرة أرى أمي ضعيفة، قليلة الحيلة، ككل السيدات العاديات. تخشى عناد زوجها وتسلطه، ولأول مرة أجدها مبعثرة، ثائرة وهي التي تتميز بالهدوء، الثبات والتحكم في الانفعالات.

كذلك أول مرة أرى أبي، يحتويها، يهدئها، وللمرةِ الأولى تستسلم، تتخلى عن نفسها التي أعرفها. بدت لي حين تذكرت ذلك المشهد بعد إزاحة السنوات عنه، كنسر ثُبت في الأرض بمسامير، يحاول الطير كطبيعته، لكن الدبابيس مغروسة بأرجلة، فتفشل محاولته للطيران، رغم صحة جناحيه الكبيرين.

ويبدو أن أبي وجد ضالته أخيرًا: زوجة مطيعة، مستسلمة، حتى لو كان زوجها على خطأ، أو كانت عجرفته وتكبره ستسوق أسرة لمصير غير مأمون.

لاحظت زيادة انكسار أمي مع اقتراب موعد سفرها، ثم سمعتها تحدث خالي في حجرة المكتب في عدم وجود أبي، باستسلام

– يريد إنهاء عقدي، وترك العمل هناك نهائيا بلا رجعة، نسيان الدكتوراه، والمركز الرفيع بالجامعة هناك، تصفية كل أعمال اشتركت فيها وتدر عائد، والاكتفاء بما حصلت عليه خلال أربع سنوات، وقطع أجازتي من عملي هنا، وأن تسير بنا الحياة كما كانت رتيبة، بلا طموح، وبلا تجديد.

ثم أردفت وهي تغير زاوية نظرها لاتجاه آخر، يريد المزيد من الأولاد.. الأولاد الذكور، يقول أن هذه أحلامه، وعليَّ أن أسعى لتنفيذها، لنظل أسرة سعيدة، ونعوض الإرتباك الحادث فيها، بسبب أحلامي وتطلعاتي الجائرة.

كان دور خالي الرد على أمي، وإلقاء وجهة نظره، لكنه اكتفى بالسكوت، وأطرق حائرا، وانتظر ردها؛ لم يتعود أن يزودها بأرائه؛ فهو أخيها الأصغر ذو التعليم الأقل والخبرة الأضئل.

لكنها أكملت دون الإلتفات لسماعه: رغم أني أعلم تحديدا ما ينبغي فعله، إلا أني سأعطي نفسي فرصة للتفكير؛ لايمكنني اتخاذ قرار دون تفكير.

سافرت أمي وهي محملة باختيارين إما مجد ونجاح، أو بيت وأسرة مستقرة. وعليها أن تختار التضحية، أوالتمرد، لاتلتفت لأي شيء آخر دونهما، كان بداخلها رغبتان، متساويتان: الأولى: الإنطلاق بكامل سرعتها، وقوتها للأمام محققة طموحها الذي عاشت من أجله. الآخر: أن تحفر لقدميها

عميقـا؛ لتبقـى كما هـي فـي نفـس مكانهـا، تنبثـق منهـا فـروع، تفرد ظلها على الجميع، وليس مهماً إن كانت حزينة، أو بائسة.

كتبـت أيضـا فـي مذكراتهـا التـي قرأتهـا أنـا بعـد ذلـك، أنهـا وجدت إجابة سؤالها الملح داخلها (ما الإختيار الأصح؟)

حيـن وصلت إلـى هنـاك، وجدتهـم قد أعـدوا لهـا منصبـا رفيعا، ومرتبـا ضخمـا، ويضعونهـا فـي مصـافِ العلمـاء؛ اعتبـرت أن تلـك الأشياء إجابة لسؤالها.

انخرطـت أنـا فـي دراسـتي، وحاولـت الإندمـاج فـي مدرسـتي، أسـتقبح مـا أسـتقبح وأرضـى بمـا أرضـى، ونبيلـة زوجـة الخـال وابنها أشـرف، يتابعـان تحركاتـي وأبي، ورغـم أن أشـرف كان ذكيا، يحـب المذاكـرة، سـريع الفهـم، وأسـتفيد منـه عندمـا زجـت بـه أمه ليصاحبنـي، يلعـب معـي، ويذاكر؛ لأغـراض كثيـرة، علمـت بعضها فـي حينـه، وعلمـت بعـد ذلـك كثيـر، إلا أنـي كرهـت تطفلهمـا، ورغبتهما في التدخل بحياتنا بشكل فج.

وكان شـعورهما بـي متبـادل، فقـد كنت لهـا طفلـة عنيـدة، صعبة المراس، وكنت له ابنة عمة بشعة، تصعب صداقتي.

أرى مواقفـي مـع نبيلـة، كلمـا ألقيـت عليهـا نظـرة مـن نافـذة الذكـرى والمفتوحـة دائمـا علـى مصراعيهـا، لتهـب علـي مـن خلالهـا نوبـات الحنيـن، الحـزن، آلام الفـراق، الوحـدة. مناوراتـي الدائمـة معهـا؛ لأنجـح دومـا فـي إثارتهـا، وعقابهـا علـى محاولات

استمالتي لمعرفة أخبار جديدة عن حياتنا، متصورة إني تلك الطفلة التي يسهل خداعها.

كانت أمي تحدثني يوميا، وأكثر من مرة، وجدت أن صوتها يمتزج بسعادة، حدثتني عن نجاحها، عن أمنياتها لي في الإنتقال من مدينتنا الصغيرة للقاهرة، وأنها تستعد لشراء شقة فخمة، وأنها تفكر في بناء مستقبل سعيد، آمن لي، وأنها تريدني قوية.

كنت أسمع كلامها، ولا أعيده لأبي حين يستدرجني ليعلم ماتنتوي عليه، كنت فقط أكتفي بكلمات عادية: تسأل عن صحتي، أحوال مذاكرتي، مدى راحتي وتكيفي.

وكنت أرد على كلماتها: لا تقلقي علي، فأنا أحب أن تنجحي، فأنتِ مثار فخري دائما.

كنت أشعر أن كلماتي تريحها، من عذاب ابتعادي عنها، وتدفعها لمزيد من النجاح، وتساعدها على اتخاذ القرارات المناسبة بشأن حياتنا.

انتظر أبي اتصال أمي الذي تخبره فيه بقدومها النهائي، لكن كل اتصلاتها له كانت سؤال عادي، وكلام متكرر.

ثم رجاء وتوسل لأن يعيد التفكير، ثم إغراء بوضع جديد تماما، حياة مختلفة، مستوى أرقى، سوف نصعد إليه، وبإمكاننا ساعتها أن نحقق جميع الرغبات، كانت تشير في كلامها لموافقتها على تنفيذ رغبته بإنجاب مزيد من الأطفال.

لكنه رفـض شـروطها، ورفـض تأجيـل مايريـد إلى مـا بعـد تنفيذ ماتنتوي.

ظلـت المناوشـات بينهمـا أيامًـا طويلـة، وشـهورًا، تهـادن أمـي، وتتمنـى إنقـاذا للأسـرة مـن أي خسـارة، دون المسـاس بكيانهـا الذي تعبت من أجل تحقيقه.

وأبـي لايقنـع إلا بنسـف هـذا الكيـان؛ لذلـك فشـلت كل مفاوضاتهمـا، ولـم يسـتطيعا إيجـاد نقطـة يلتقيـا عندهـا، أو لغـة مشتركة يتفاهما بها، ويتواصلا.

عـادت أمـي قبـل موعـد عطلتهـا المعتـاد؛ لإعانتـي أثنـاء الإسـتعداد لامتحانـات الشـهادة الإبتدائيـة، وحضـور الاختبـارات ولـم تخـض فـي أيـة موضوعـات تخالـف ذلـك، لكنـي لاحظـت جفاءا ظاهرا بين والداي.

بعـد انتهـاء فتـرة الامتحانـات، دبـت حركـة غريبـة بالبيـت، كان والـدايَّ كثيـري الخـروج، لكـن كل منهمـا باتجـاه، ثـم سـادت فترة طويلة خرساء بينهما،

وخرجا مرة من البيت زوجين، رجعا غريبين.

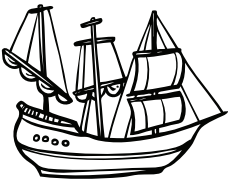

.....

(4)

الخاسر الوحيد

فترة ماقبل الطلاق مباشرة، لم أعلم تفاصيلها، ولا أدري لم أخفياها عني، طالما علمت بانفصالهما في النهاية. كل ما أذكره أني يومها تخيلت أن الشمس لم تطلع، في الحقيقة كانت موجودة، ولافحة، لكنها لم تستطع تدفئتي، رغم الحرارة كنت أشعر ببرودة داخلية تكتنفني، لا تقدر شمس أغسطس على تبديدها.

يومها وقفت بالشرفة، وحدي كما لم يوجد كذلك أحدا بالبيت. كان كل همي أن أهزم الشمس وأنظر بعينيها، رغم اختراقها أغشية عيني، وكادت تحرقها، إلا أني استمريت أتحداها، حتى دمعت عيوني، وأصابتني زغللة، وحين هزمتني الشمس، تكومت على أرضية الشرفة، أبكي، أخذتني أمي في حضنها الرائق الذي مازلت بعد كل هذه السنوات أشعر به، وامتزجت دموعنا في صمت.

رغـم أننـي أتميـز منـذ الصغـر بالتعالـي علـى الأحـداث ظاهريا، وأُعـرض عـن مايضايقنـي بسـهولة، إلا أن طـلاق أمـي مـن أبـي وابتعادهما بشكل نهائي، قاطع، كان أول حدث يعصف بثباتي.

جهزنـا وأمـي حاجاتنـا، وتنـازل أبي عنـي هـذه المرة دون شـرط ولـم يودعنـي، تركنا شـقتنا مغلقـة وراءنـا، ورحلنـا، وعلمـت بعدها أن أبي جهز شقة أخرى جديدة، كما جهز لزواج آخر.

انطلقـت أمـي كمـا لـم تكـن مـن قبـل، وتقلـدت منصبهـا، ومارسـت مهامهـا، والتحقـت أنـا بمدرسـتي، ولكـن فـي مرحلـةٍ جديدة.

كانـت أمـي رغـم بؤسـها، وانكسـارها الـذي حاولـت إخفـاءه، تتمتـع بحريـةٍ فـوق عاديـة. اسـتطاعت بها إنجـاز مالـم تسـتطعه من قبل.

ثم مالبث حزنها وقهرها يتحول لارتياح، سكينة.

حلـت العطلـة السـنوية ورفضـت أمـي قضـاء العطلـة السـنوية بالقاهـرة، ورفضـت أنـا أيضـا، لكـن أبي أرسـل فـي طلبـي؛ فوافقت أمـي، ومانعـت أنـا لكن أمـي أرسـلتني مـع خالي الـذي كان مسـافرا لزيارة أسرته.

هاتـف خالـي أبـي فـور وصولنـا، حتـى ينتظرنـي فـي مـكان قريب.

حضر أبـي، والتقـي خالـي فـي بـرود، وكذلك خالـي، بينمـا كان سلامه لي حارا، وعناقة دافئا.

تركنـا خالـي مسـرعا، ومشـيت مـع أبـي، الـذي بـدا يبحـث عـن كلمـات يخبرنـي بهـا عـن شـيء لا أعرفـه، ثـم بـدا كأنـه اسـتجمع قدرا من إقدام، وتوجه إلي:

– صـرتِ كبيـرة حبيبتـي، ودائمـا كنـت أراكِ أكبـر مـن سـنك الحقيقي

تعلميـن طبعـا مـدى الخـلاف بينـي ووالدتـك، هـذا الخـلاف لا يعني أني لا أقدرها، وأعترف بميزاتها.

ثـم اسـتطرد سـريعا بهـدوء يشـوبه اضطـراب: ولكنهـا كانـت دائمـا مصـدر الخلافـات، كانـت عنيـدة، ولا تبصـر سـوى رأيهـا، ولاتعترف بأراء الآخرين حتى إن كانوا صائبين.

نظـرت لـه نظـرة نافـذة؛ فـإذا بـه يسـرع الخطـى، ويختصـر كلام كان يود صبه بأذني كديباجة لموضوع...

– لقد تزوجت منذ شهور قليلة؛ أريد حياة مستقرة، هادئة.

فاجأنـي، ثـم سـبقني بعـدة خطـوات دون الإلتفـات، ويكأنـه يهرب من مصادفة عيني، أو يخاف مني، ولا أعلم ما السبب!

نزلـت دمعـة ملعونـة رغمـا عنـي، مسـحتها بسـرعة وخفـة قبـل ملاحظـة أبـي، وأجبـرت باقـي الدمـوع علـى عـدم التحـرك أي خطوة؛ حتى آذن لهم.

توقـف أبـي أمـام عقـار مـن أربعـة طوابـق، أمسـك يـدي برفـقٍ قائلا:

هذا بيتي.

تراجعـت خطـوة، ثـم تقدمـت معـه للدخـول، حدثـت نفسـي بقسوة أني ارتضيت المجئ لزيارته، وعزمت ألا أفعلها ثانية.

قابلتني زوجته، بترحاب مصطنع..

شـابة صغيـرة، وجههـا مليـح إلـى حـد كبيـر، لكنهـا تفتقـر للرقي، يظهر ذلك في ملبسها، وزينتها، وألوان حوائط البيت.

أما أثـاث المنـزل فظهـر رخيـص؛ فأبـي كان قليـل الدخـل، ليس لديه مدخرات كثيرة، يعتمد كليا على وظيفته الحكومية.

أحزننـي إلحاحه فـي طلـب التقـرب مـن زوجتـه، وإن كان طلب على استحياء، وغير مباشر.

دعتنـي سـلوى للغـداء الـذي حضرتـه مـن أجلـي -كمـا قالت- وأصريت أن أناديها باسمها مما ضايقها وضايق أبي.

لـم أتنـاول طعامـا كثيـرا، ولـم أذق كل الأصنـاف، ثـم وقفـت بسرعة أخبرهم أني انتهيت.

اندهـش أبـي، وأخـذ يجلـب مـن هـذا الطبـق وذاك ويطلـب أن أتناول، يحاول أن يسترضيني، ثم حدثني بلطفٍ لم أعتده:

– الطعـام شـهي، لذيـذ، ومتنـوع، وطيـب، ثم اسـتطرد فـي خبث لم أعهده فيه:

أعلـم أنـه لا وقـت لديكـم بالخـارج للطبـخ، فتكتفـون بالصنوف السـهلة، الخفيفـة، أو المعـدة مسـبقا، أو تلجـأون لتنـاول طعامكـم بالمطاعم.

فرددت عليه في غيظ ألبسته لباس الثقة:

– نأكل لنعيش بابا لا العكس كما تعلم.

كمـا أن الطعـام الـذي نطهوه هنـاك صحـي، مفيـد يسـاعدنا على اتمام واجباتنا، وإنجاز أعمالنا، لا يصبنا الكسل؛ فننام، فنمرض.

وعمومـا تعـودت علـى طعـام خفيـف، ولـم يعـد يسـتهويني الدسم الثقيل المتعب.

سـكت أبـي حتـى لا أزيـد فـي كلامـي؛ الـذي وجـدت أنـه أحرجـه أمـام زوجته. وجعـل ملامحهـا تكتسـي بالاسـتياء؛ فأراحني ذلك.

وبجانـب بـاب الحمـام وانـا أغسـل يـدي سـمعتها تحـدث أبـي بصوتٍ خفيض: هل هذه طفلة في الثالثة عشر!

كيـف اسـتطاعت التحـدث بتلـك الطريقـة السـليمة الثابتـة المنمقة؟

كان اللـه فـي عونـك ان تحملـت أمهـا تلـك السـنوات، فمؤكـد أمها أبشع منها.

تظاهـرت أنـي لـم أسـمع، وظللـت مكانـي حتـى أسـمع رد أبي، ودفاعه عني وأمي لكنه لم ينطق.

اسـتمرت سـلوى فـي ودهـا الـكاذب، تقـدم عصيـرا، حلـوى، وتحـاول التحـدث فـي أي موضـوع، وكذلـك أبـي، فينتهـي الأمـر إلـى أنهـا وأبـي يظـلا يتحدثـا وحدهمـا ؛ فقـد كنـت أنهـي أي حوار فور بدئه

ثم قمت بسرعة، طلبت من أبي الانصراف.

هب واقفا، متعجبا :

- إلى أين؟!

- إلى البيت

-في حدود علمي ليست والدتك هنا.

- وما المشكلة، سأظل وحدي.

- ولمَ؟ اقضي فترة العطلة معي.

- معك!

لو كنت وحدك لفعلت. أما الآن فلا يمكنني، ولن أطيق.

- إذن فعند خالك تقيمين.

وافقتـه؛ لأنهـي النقـاش فقـط، وكنـت أعلـم فـي قـرار نفسـي قدرتي على جعل خالي ينصاع لرغبتي، ويفعل ما أريد.

انتظرنـي خالـي أسـفل منـزل أبـي، نزلـت بسـرعة، دون توجيـه كلمـة لأحدهمـا، وكانـا لـدي البـاب يودعانـي، واكتفيـت بكلمـة (سلام).

مؤكـد فرحـت سـلوى، بقـراري بعـدم البقـاء، ربمـا حدثتهـا نفسها «ارتحت من تلك المتسلطة اللسان».

عنـد خالـي، كان اسـتقبال مبالـغ فيـه، مـن الجميـع وخصوصـا نبيلة.

دلفت مباشرة للحجرة التي جهزوها لي.

لـم أسـتجب لتوسـلاتهم فـي الجلـوس معهـم، التحـدث، وتناول شيء من الطعام أو الحلوى.

تمـددت علـى السـرير الـذي يخـص أشـرف فـي الغالـب. ثـم انكمشـت وغافلتنـي غفـوة، ثـم قمـت فزعـة، مضطربـة، ولـم يـأتِ النوم بقية الليلة.

فـي الصبـاح، اسـتيقظت قبلهـم، وتجهـزت للخـروج، انتظـرت بردهـة المنـزل الخاليـة مـن سـكان الـدار، السـاكنة تمامـا، فتحـت الشـرفة الطويلـة التـي بابهـا فـي تلـك الصالـة، كان الصبـاح فـي بدايته مازال، وقفت أتأمل حتى يستيقظ أحدهم.

شعرت بحركة خلفي، التفت فكان أشرف، يدعك عينيه، ويحاول تسوية شعره.

فسألته بهدوء حتى لا أفزعه:

- ماذا أيقظك مبكرا هكذا يا أشرف؟

- لا أعرف، ربما لأني غيرت مكان نومي.

ضحكت..

- صراحتك أهم ما يعجبني أشرف، إياك أن تغيرها متأثرا بوالدتك.

شعر الفتي أنه تسرع؛ فتركني حتى اغتسل وبدل ملابس نومه، وتقدم جالسا على الكرسي المقابل لي في الشرفة، تحدثنا في شؤون الدراسة، والمدرسة، وأعرب عن تمنيه الدراسة هناك في البلد الآخر الذي نعيش فيه، ورغبته الأكيدة في دراسة الحاسب والتخصص في البرمجة، لكن أمه تصر على أن يدرس الطب.

ثم سكت، وسكت هو، وأسند كل منا رأسه على ظهر مقعده، ونمت قليلا.

استيقظت نبيلة أولا، وبالطبع سرها المشهد الذي رأتني فيه نائمة بحراسة ابنها الذي جاهدت لتقربه مني.

فوجئ الجميع عقب الإفطار، بقراري الذي أصريت فيه على البقاء بمنزلي، لم تأتِ محاولاتهم، أو محايلتهم بنتيجة.

جاؤوا كلهم معي، ونظفنا البيت جميعا بعشوائية على أن تأتي سيدة تجهز البيت بشكل أفضل، تأكدت أن بالهاتف حرارة، وعرضت نبيلة البقاء معي فرفضت، فغادرت وابنها، وظل خالي بعدهم، ثم خرج وعاد وقد أحضر طعاما، وأغراضا متعددة. ما كان بيننا حديث؛ فظل نائما على أريكة، في صالة البيت شعرت بالملل في وجوده، وتمنيت أن يرحل، لكني لم أطلب.

ومضى الوقت ثقيلا حتى قال باستحياء:

– اقترب الليل، هيا تعالي لتقضي الليلة معنا ثم أحضر معكِ صباحا.

– لا يا خالي، سأظل هنا، وحدي، وأرجوك اذهب لبيتك واتركني، صمم في البداية.. ثم اقتنع تحت تصميمي وصمودي.

عندما صرت وحدي، فتحت غرفة المكتب ونظرت للمكتبة، وكانت الحجرة الوحيدة التي لم تنظف لأني رفضت أن يطأها أحد غيري، وقضيت وقتا طويلا في تنظيفها.

اتصلت أمي، للإطمئنان، أردت أن أحكي وأخبرها بما حدث ومررت به، فوجدتها تعلم كل شيء، وتعرف الكثير، طلبت أن

أظل لدى خالي، ولكنها تراجعت عندما أخبرتها بسعادتي وأنا ببيتنا.

فقالت:

- كما تشائين، لست صغيرة على كل حال، وعموما سيقطع خالك العطلة، وتحضرا قريبا.

- ولمَ يا أم! فقط يوصلني للمطار، والتحق بالطائرة؛ فتنتظريني انتِ هناك وكفى.

- لست كبيرة إلى هذا الحد يا فتاة.

تعجبت بعد مكالمة أمي من عدم حزنها، أو غضبها، أو حتى غيظها. لم تنبس كذلك بكلمة تدين بها أبي وموقفه.

كانت مستريحة، هادئة، ولم يعنيها زواج أبي كما تصورت.

وجد كلاهما حياته التي أرادها بعيدا عن الآخر، خسر كل منهما، لكن استطاع تعويض خسارته سريعا، وحصل على ما افتقده، هنئ، واستقر.

إلا أنا كنت الخاسر الأكبر الوحيد، ووحدي حملت فوق ظهري نتيجة فشلهما معا.

دلفت حجرتي وبكيت كما لم أبكِ من قبل، استرجعت كل ما مررت به واجتررت أحزاني، واستسلمت لنوم عميق بلا أحلام.

أجبرت أمي خالي على قطع أجازته سريعا، حتى لا تتركني وحدي بالبيت، وذلك بعد أ ن رفضت مطلقا استضافة أبي، واعتذرت عن استضافة خالي.

وعزمت أن لا أكرر زيارتي لأبي في العطلات التالية.

عدت مرة أخرى لأمي ولبيتنا الأنيق، الذي لم تترك أمي جهازا حديثا إلا زودته به، ولأن العطلة الدراسية كانت في بدايتها مازالت، فقد أنفقناها كلها في زيارة مدن الألعاب، والتنزه، والتسوق، كنا كالمحرومين نغترف من المتعة بقدر ما يملأ قلبينا ويفيض؛ فنطرد ماعلق بهما من أثار الحزن الفائت.

قضيت مع أمي أوقاتا سعيدة لم أقضها من قبل، قررت نسيان كل ما يؤرقني، ويؤلمني.

كبرت، وتطورت، ليس لأن أيام عمري تمر، شهرا بعد شهر لكن لأني قرأت كثيرا..كثيرا جدا، أطلعت على كافة العلوم؛ لأني كنت أستمتع بمعرفتها، والآداب والفنون؛ لأن أمي كانت تحبها، وتكتظ مكتبتها بكل قديم، وجديد عنها.

انشغلت عني أمي معظم أوقاتها، لكنها كانت دائما تجد أوقاتا أخرى تقضيها معي، ومرت سنتان، وأنا وأمي، نحيا بهدوء، ونظام، ودقة، كنت حريصة ألا أزعجها، وألا أكون مصدرا لقلقها بأي شكل.

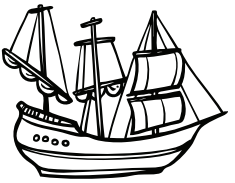

(5)

المـــوت

كثيـرا مـا فكـرت فـي حقيقـة المـوت، بـل كان يسـتنفذ معظـم سـاعات شـرودي، التـي كان يظنهـا البعـض تفكيـر فـي الاشـيء. وكثيرا مـا داهمـت عقلي بأسـئلة عجـز عـن إجابتهـا. لماذا في توقيت معيـن يمـوت ذلـك الشـخص تحديـدا، وقـد يكـون غيـر مسـتعد ولم ينهِ بعد تحقيق أحلامه، ومثقل بمسؤولية لن ينجح فيها غيره؟

لاحظتهـا شـاحبة، سـألتها، فأعـزت ذلـك لسـطوة مهامهـا علـى أوقات راحتها.

اسـتمرت ملاحظتـي فرأيت علامـات شـيخوخة تكسـو ملامحها دون مناسبة، فهي مازالت في بداية الأربعين.

نقص وزنها بشكلٍ ملحوظ، وزاد الذبول، وطغى الوهن.

مـا كان يريحنـي أنهـا كانـت تذهـب لعملهـا باعتياديـة، وتراقـب شـؤوني كالعـادة كحصـانٍ أصيـل يأبـى التخاذل فـي المضمـار مهما كانت معاناته.

لكـن مـا أفزعنـي أنـي رأيتهـا ذات يـوم - صدفـة- تتنـاول عقارا، وتخفيه بعدها بحذر.

ما زاد قلقي وارتيابي أن خالي بدا مشغولا، ساهما، بائسا.

حاولـت مواجهـة أمي بمـا أشـعر وألاحـظ لكنـي كنـت أتراجع، خوفا من أن أسمع مالا أطيق.

هاجمتنـي كوابيـس ليليـة متتاليـة، تركـت القـراءة تمامـا، بـت مشـغولة مثلهـم، تنغـص علـيَّ أفـكاري حياتـي، بحثت عن شـخص ألقـي فـوق كتفـه وساوسـي، فلـم أجـد، كل المعـارف لا يرتقـون لمرتبة الأصدقاء.

آلمنـي إحسـاس الوحـدة المريـر الـذي عانيته فـي تلـك الظروف العصيبة.

أنهيـت امتحانـات المرحلـة، وكان مفترضـا أن أسـعد بقـرب انتقالـي لمرحلـة دراسـية جديـدة تمامـا انتقـل فيهـا مـن طـور الطفولة لطور الشباب.

لكـن كان هنـاك توتـر يشـوب أجـواء المنـزل، كان هنـاك أمتعـة تحـزم، ومكالمـات غيـر مألوفـة تُجـرى، اعتقدت أنـه سـفر مفاجئ، لكنه كان ذهاب أمي لقضاء فترة علاج بإحدى المستشفيات.

أجلتهـا حتـى نهايـة الإمتحانـات النهائيـة، رافقتهـا ثـم رجعـت دونها بأمر الأطباء.

كان خالي يأخذني كل يوم لزيارتها. ثم بعد ذلك كان السائق يوصلني، بينما انشغل خالي بالسفر لمصر والمجيئ كل فترة، واصطحاب محام، وعقود وأوراق، توقعها أمي على عجل، وتطلب من خالي السرعة، ويسرع بدوره، والعلاج يؤخر الحالة، لا يشفيها، أو يتقدم بها، وترفض أمي الرجوع للوطن، وترفض العلاج في إحدى مستشفيات العالم المشهورة، ويؤكد الأطباء أنه لا أمل حتى لو تم السفر، وأنا أنهار، وأحاول أن أبدو ثابتة فأنهار أكثر، لا أعرف لماذا كنت أمتلك يقينا بشفائها. أو هو أمل كان كل رجائي.

أصبحت نزيلة بالمستشفى، استأجرت أمي حجرة لي عندما تدهورت حالتها.

بعد شهرين عادت للبيت، واعتقدت أنها على عتبة الشفاء وكادت تستأنف عملها، لكن سرعان ما انهارت صحتها، عادت للمستشفى برفقتي، كنت أخشى أن أتركها وأنام، كنت أجلس بجانبها، أمسك يدها، أطعمها، أسندها عند قيامها، أعدل لها هندامها، أحفظ مواعيد دوائها كالتمريض وأدق، حتى أثناء نومها، كنت أظل باسطة نظري فوق جسدها، أتخيلها شُفيت، وعدنا نمارس حياتنا من جديد، حتى نمت مرة، واستيقظت، على صوت صياح أقدام تهرول ، ثم هلع الممرضات وتزاحم الأطباء، ثم سكوت فجائي، بشع مخيف، وأطرق الأطباء، وراح

خالـي كعادتـه يجـري الاجـراءات، وينهيهـا. وبقينـا وحدنـا غيـر متأكدة أيـا منـا فارقتـه روحه، مشـت عينـي ذهابـا وإيابا علـى الغطاء الـذي بـلا لـون المنسـدل فوقهـا، رفعتـه عـن وجههـا وكلي أمـل أن تبتسـم، وتعـود إلـي وتكذبهـم جميعـا، لقـد كانـت كالجنـدي الشـجاع الـذي حـارب بـكل شـجاعة حتـى نفـاذ آخـر ذخائـره، لذلـك يسـتحق صناعـة تمثـال يمجـد أثـره، ويخلـد ذكـراه. وقررت أن أكون ذلك التمثال.

تهـدم بنيانـي ببـطء، حتـى سـقطت، وعنـد إفاقتـي باغتنـي الحدث من جديد، فإذا بجزيئاتي تعاود التهدم لأشلاء.

مـا أدهشـني أنـي رغـم الخـراب الوحشـي الـذي احتلنـي فـي لحظـات لـم أبـكِ، ظلـت عينـي مفتوحـة، متجمـدة، وأحـداث حياتـي التـي أصبحـت منـذ تلـك اللحظـة ذكريات، تمـر أمـام عقلي فـي تـأنٍ كأنـي أعيشـها مـن جديـد، شـعرت ببـكاء كل جوارحـي ماعـدا عينـي، كأنهـا أبـت أن تدمـع، ولـم أهتـدِ سـاعتها للسـبب، ولم أبحث.

انتقلـت للبيـت بأمـر مـن خالـي، وأحاطنـي هنـاك مجموعـة من النساء، لا أعرف كيف عرفن، ولماذا جئن، وماذا سيفعلن.

علمـت بعدهـا مباشـرة أنهـن زوجـات لرجـال مصرييـن، يعمـل بعضهم مع أمي والآخرون في وظائف أخرى.

عرضـن مسـاعدتهن فـي جمـع متعلقاتـي، وحاجاتـي، بمسـاعدة الخادمـة وهـؤلاء النسـوة الاتـي لـم أسـتطع حفـظ ملامحهـن،

أو تمييـز أصواتهـن، أو معرفـة أسـماؤهن، انتهيـت مـن جمـع كل شيء يخصني وأمي، ما عدا الكتب، كانت كثيرة، وثقيلة

أخذت منها القليل فقط.

فـي الطائـرة العائـدة بنـا وخالـي وأمـي لم أنـم، ولـم أبـكِ، كنت على قمـة الإرهـاق، واليقظـة، أمـي معـي، صوتهـا بأذني، تلمسـني، إنها بجانبي، لكن لا أراها.

فـي المطـار اسـتقبلنا أبـي، تذكـرت اليـوم الـذي كانـت تبحـث فيـه أمـي عنـه، وتتمنـى لـو رأتـه يسـتقبلها، اليـوم فعـل، وهـي محمولة في صندوق.

عانقنـي أبـي، ربمـا كان حضـوره مـن أجلـي، عندمـا أصبحـت داخـل حضنـه وبيـن زراعيـه، بكيـت بـلا صـوت وبـلا سـيطرة على دموعي التي اتضح أنها كانت في حاجة لعناق؛ كي تنهمر.

انتهـت الإجـراءات، وتم مـواراة جسـدها تحـت تـراب المقبرة، وانتهـي يـوم ودعـت فيه أمـي، وسـط ذهـول كافـة حواسـي، وقلبي. شـعرت أنـي أؤدي حـركات تلقائيـة آليـة خارجة عـن تحكـم عقلي، كأني تناولت مهدئات العالم، وحقنت بمخدر طويل المدى.

لـم يحضـر المراسـم سـوى عـدد قليـل مـن المقربيـن مـن الأقـارب والأصدقـاء، والمعـارف، لـم يكـن الكثيـرون يعلمـون بالأمر كله.

تأخر الوقت كثيرا، أثناء الرجوع، تحدث أبي بضرورة استقراري معه ببيته، وكأن الأمر مسلم به، كما أوضح أن هذا هو الوضع الطبيعي، الذي لا يوجد خلاف عليه، قرر مصيري في لحظاتي الحالكة، والأكثر صعوبة، لايعلم أني كنت أيضا أفكر في مصيري الذي لم أحسب له حساب.

تحدث أمام خالي وبعض أقارب أمي وأقاربه.

حال رجوعنا من المقابر التي على أطراف المدينة في بقعة غير مأهولة، وأثناء التفافنا حول السيارات المتاثرة أمام بوابة المقابر.

سمعت الكلام الذي عُرض، ووجدت أن المناقشة ستطول، والكل سيدلو بدلوه؛ ويعرض وجهة نظره، فمعضلتهم تلك الفتاة الصغيرة، اليتيمة، ومأواها. رأيتني كقطعة شطرنج؛ يحركونها من أجل استمرار اللعبة.

فتحت باب إحدى السيارات وجلست على مقعد خلفي وأسلمت رأسي على مسنده وتركت لدموعي بعض من حرية.

عند رؤيتي أضواء المدينة من بعيد، بعد أن تركنا مدينة الموتى خلفنا، أخبرت بصوتٍ عال، أني أريد منزلي، اعتقد أبي أني أرغب في بعض ملابس أو أدوات، فوافق، ونزل معي، وفتحت الباب، وغالبت دموعي، وارتميت على أريكة وظهر علي التباطؤ، استعجلني أبي، دون اكتراث لحالي:

– هيا حبيبتي، الوقت تأخر، اجمعي حاجاتكِ، وسوف نكمل غدا

– أنا هنا يا أبي لأن هذا بيتي، ليس لي مأوى غيره، لن أعيش عند زوجتك التي لم أطقها أو أسترح لها.

– وكيف ستعيشين وحدك هنا؟!

قلت بتأنيب منهك:

–فعلتها منذ سنتين وكنت في الثالثة عشر، الآن وأنا على مشارف السادسة عشر أعتقد أني سأفعلها.

–المرة الفائتة لم تمكثِ أكثر من عشرة أيام وحدك

– هو ذات الحال أبي، وان كنت تخاف علي الوحدة، فتستطيع البقاء معي.

– سأظل اليوم معك فعلا، على أن نعيد الكلام من جديد، فأنت عنيدة، متشبسة بآرائك الخاطئة مثل..... وكان سيقول أمك، لكني حدجته فلم يكمل.

قصد الهاتف. اتصل بزوجته، يخبرها بمبيته معي، دلفت حجرتي، ودون تغيير ملابسي، أسلمت جسدي لسريري المترب، واعتقدت أني لن أنام، لكني استغرقت في نوم عميق، اسيقظت منه على الواقع المحلق فوق رأسي، فسرى خوف في بدني، واتابتني قشعريرة، وحاولت تهدئة نفسي، لكني سمعت

صـوت بالخـارج، كانـت زوجـة خالـي، والسـيدة الغريبـة التـي كانت قد أتت معها ذات يوم للتنظيف.

خرجـت فتناولتنـي كل منهمـا بالعنـاق والقبـلات، كـن كأنهـن يحتضـن ملابسـي فقـط، أمـا جسـدي فـكان أثـر المخـدر الـذي لـم أتناولـه فيـه، لايشـعر تمامـا. وكلمـات المواسـاة المعروفـة، أخبرتانـي بضـرورة تنظيـف البيـت بسـرعة؛ لأنـه سـتتوافد الكثيرات لتقديـم واجـب العـزاء، فسـألت هـل البيـت سـيزدحم؟ قالـت نبيلـة والتـي معهـا، سـينصبون صوانـا بالأسـفل للرجـال، وسُتسـتقبل النساء هنا.

مـرت ثلاثـة أيـام والنسـاء يأتيـن، لا أعـرف معظمهـن ومـن أعرفهـن بالـكاد أتذكـر أسـماءهن، كانـت نبيلـة والسـيدة التـي معها يتوليـان تعريفـي بهـن، وأنسـاهن علـى الفـور كنـت كمـن أفـاق من غيبوبـة تـوا، أو مـن يسـتعيد عالمـه بعـد الإفاقـة مـن مخـدر جـراء جراحـة، ثابـتٌ هيكلـي الخارجـي بينمـا تترنـح خلايـاي. جلسـت علـى كرسـي يجتـر عقلـي ذكرياتـي رغمـا عنـي ويسـترجعها أمامي ولا أفيـق إلا علـى كلام هـؤلاء النسـوة، وهمسـهم وأسـئلتهم عنـي، من تدعـو لـي، مـن تسـأل كيـف سـأعيش وأيـن، ومـن تتسـاءل عن ثروتـي وتفاصيـل توزيعهـا، بالطبـع كانـت نبيلـة نجمـة بالتجمـع النسـوي، علمـت كل شـيء مـن زوجهـا، وتجيـب كأنهـا عالمـة ببواطـن الأمـور كهـؤلاء الذيـن بتنـا نشـاهدهم فـي البرامـج ليـل

نهـار. رغـم أنـي لـم أكـن أعلـم حتـى تلـك اللحظـات عـن أمـري شيئا.

انقضـت ثلاثـة أيـام، وكـف النـاس عـن تقديـم عزاءهـم لـي، وطلـب خالـي عمـل اجتمـاع مصغـر منـه وأبـي وأنـا فقـط. أخبرني خالـي فيـه بـكل ممتلكاتـي التـي نقلـت ملكيتهـا أمـي لـي منـذ مايقـرب مـن سـنة، منـذ علمهـا بمرضهـا، كمـا تركـت لخالـي مبلغا نظير خدماته، ومبلغا؛ تعويضا عن حقه الشرعي في أموالها.

والباقي كله تركته لي بموجب عقود موثقة.

والشـقة التـي أسـكنها والتـي كانـت بنظـام الإيجـار، اشـترتها، وكان عقدها باسمي.

كانـت تركتهـا مبلغـا كبيـرا بالبنـك، وقطعـة أرض بُني فوقهـا بناء لـم يكتمـل، ومسـاحات مختلفة أخـرى يمكـن اسـتثمارها، غيـر أنه لـم تتناولهـا يـد الاسـتخدام، والاسـتفادة منهـا بعـد، لكـن كان ينتظرها مستقبل عريض.

قـال خالـي، بحـزنٍ واضـح، وانهـزام، ربمـا نتيجـة تأثيـر عـام كامـل مـن تحمـل مسـؤولية ثقيلـة: صممـت «ألفـت» منـذ علمهـا بمرضهـا، ومنـذ بـدأت تصفيـة أسـهمها، واسـتثمارتها. أن الوصـي الرسـمي علـى ياسـمين يكـون أبيهـا، وأن أقـوم بإقناعـك إذا لـم توافق.

لكـن أبـي وافـق فـورا، قائـلًا: أن ذلـك هـو الأمـر الطبيعـي، والذي لا يحتاج لوصية.

أعاد أبي طلبه بوجوب العيش معه بمنزله، وأعدت الرفض.

فـكان يتواجـد معظـم الوقـت معـي فـي البدايـة، كان حنونًـا، عطوفـا كمـا لـم يكـن مـن قبـل، كان يتحـدث كثيـرا معـي، يتنـزه معـي، ونتنـاول معظـم وجباتنـا الرئيسـية بالخـارج، وكانـت زوجـة خالـي تأتـي مصطحبـة السـيدة الغريبـة للتنظيـف، وطهـي طعامـا يكفي عدة أيام.

لكنـي كنـت أشـعر بحاجـز، يقـف كحائط سـد بيننـا، لا يسـتطيع أبي بكل محاولاته تخطيه، ولا أنا كنت أحاول.

أخـذ يقلل مـن الوقـت الـذي يقضيـه معـي، ثم بـات قليـلا جدا، ثم قـام بتقديـم عرضـه بالاسـتقرار معـه وزوجتـه، فكـررت الرفض، وتشبثت برأيي؛ فعرض علي فكرته:

– إذا كنـتِ لا ترغبيـن نهائيـا فـي العيـش معـي ببيتـي، رغـم أن ذلـك هـو الأمـر الطبيعـي، فأنـا أفكـر فـي اسـتئجار سـيدة محترمـة، تقوم بخدمتك، والبقاء معكِ والمبيت أيضا.

كانـت هـذه فكـرة ذهبيـة، والحقيقـة كنـت أحمـل هـم اقنـاع أبي برغبتـي، واعتقـدت أنـه سيتمسـك بـي أكثـر مـن ذلـك، وكان هـذا سـيحدث مشـدات، مجـادلات، ومشـاجرات، وربمـا خصـام

ومقاطعة؛ لأني لم أكن أنتوي التخلي عن قراري، فهتفت مشجعة:

- أوافقك جدا أبي، فذاك أفضل رأي، وأحسن تفكير.

لجأ أبي لزوجة الخال؛ لتنتقي له سيدة يأتمنها، تكن معروفة بالنسبة لها وتتوافر فيها الشروط المطلوبة.

أتت نبيلة ومعها السيدة التي لم أشاهدها إلا بصحبتها، والتي كانت تأتي لمساعدتها في تجهيز المنزل لاستقبال أمي. لم أكن حتى تلك اللحظة أعرفها بشكل جيد، ولم أتكلم معها طوال حياتي سوى مرتين أو ثلاثة، وبشكلٍ مقتضب.

أنشأت نبيلة تعرفنا على المرأة بشكلٍ جديد، بصفتها الجديدة:

- لطيفة، أرملة منذ سنوات، ليس لديها أولاد.

استطردت، وأخذت تكمل:

ليست خادمة، هي فقط كانت تلبي ندائي لها عندما تزيد علي الأعباء وتكثر، كالأيام التي كانت تسبق مجيئكم من الخارج، وطلب المرحومة ألفت، تجهيز البيت؛ ساعتها كنت ألجأ للطيفة، ولم يحدث وخذلتني.

ثم توجهت نبيلة لي، وكأنها ستعلمني خبرا خطيرا:

هـي تمـت بصلـة قرابـة – وإن تكـن بعيـدة – بينهـا وبيـن جدتك لأمك.

كان أبـي يعلـم عـن هـذه المعلومـات، وقَبـلَ لطيفـة مرافقـة لي، تعيننـي على وحدتي، وتدبير شؤوني.

انصـرف أبـي، ولا أعلـم هـل كان مسـتريح عندمـا خلـع ثـوب المسـؤولية وألقـى بـه علـى أكتـاف الغربـاء. كذلك لـم أكـن متأكدة من أنني محقة حين استحسنت الوحدة.

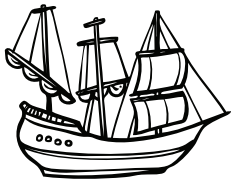

(6)

حيــاة جديــدة

مرت الأيـام مختنقـة، ثقيلـة. حاصرتنـي ذكرياتـي السـابقة بجوار أمـي مـن كل جانـب، لكنـي كنـت سـعيدة بهـا مقبلـة عليهـا؛ حتـى فصلتنـي عـن العالـم، وأبعدتنـي عنـه، كانـت النهـر العـذب الـذي أغسل فيه حزني السرمدي وأتطهر من هم الواقع.

لكـن هـذا لـم يعجـب لطيفـة، كانـت تصـر علـى فـرض طباعهـا، وتجاهـد لتشـكيلي كمـا تحـب، لـم تروقهـا عزلتـي، ولا اختفائـي عنهـا داخـل حجرتـي، وحجـرة المكتبـة؛ والتـي كنـت قـد حرمتهمـا عليهـا، حتى تنظيفهما كنت أتولاهُ بنفسي.

فهمـتُ أن لطيفـة كانـت تعتقـد قبـل مجيئهـا - وربمـا غـذى عندهـا هـذا الإعتقـاد وعمـل علـى تنميتـه - صديقتهـا نبيلـة؛ أنهـا سـتكون جليسـة لطفلـة أوحتـى يافعـة، يسـهل السـيطرة عليهـا، وتصبح سيدة للبيت لا مجرد مربية، أومديرة منزل.

صدمتها في قوة شخصيتي، وشدة مراسي، وعنادي، جعلها طوال الوقت توجه نصائحها، وعندما لم تجدنِي أكترث بها، توجه لومها، وتظهر استهجانها؛ والذي كان مزعجا لي كنقيق الضفادع في الحقول ليلا، لا سبيل لإسكاته.

لكن أصعب صفاتها على الإطلاق كانت التطفل، التدخل الدائم في شؤوني، إلحاحها على معرفة تفاصيل حياتي السابقة، وممتلكاتي، وكيف أتصرف فيما يخصني، ولماذا أنا مقتصدة في النفقات بالرغم من ثرائي، ولمَ لا أمتلك أصدقاء، ولماذا أعزف عن المشاركة في مناسبات العائلة الإجتماعية، ولماذا أنا بعيدة عن أبي وزوجته. وكم لا نهائي من أسئلة تستولدها من أسئلة أخرى، لكني كنت فقط أكتفي بجدران غرفتي، وكتب أمي؛ فتركتني مولية وجهها شطر الجيران؛ اللذين عرفت أخبارهم، وتفاصيل حياتهم، وأحوالهم، وكانت تتمنى لو تعلم عني أيضا مثل ماتعلمه عنهم لتقايضهم بأخباري.

في المدرسة الثانوية، قدم أبي أوراق التحاقي، هي نفس مدرستي التي قضيت بها سنتين، بالمرحلة الإبتدائية، تغيرت قليلا، قُيد اسمي بأحد الفصول، لم أتذكر أحدا، بالطبع لم أعد تلك الطفلة المنطوية، التي تعاني اضطراب بسبب توتر بين والديها.

منحني الله جاذبية في ملامحي التي ورثتها عن أمي، وهي تقاطيع تتميز بالحسن؛ بشرة بيضاء، وعيون وشعر بنيين، الشعر

مقصـوص قصيـر جـدا، غيـر محجـوب، بالإضافـة لتفوقـي فـي العلـوم الدراسـية، وثقافتي التـي اكتسـبتها مـن مكتبة أمـي العملاقة؛ لذلـك كان زملائـي مـن الجنسـين، يلتفتـون لـي، ويحاولـون التقرب، وأنال إعجاب المعلمين.

امتـدت محـاولات التقـرب لـي حتـى شـملت المدرسـة كلهـا؛ لاتسـاع نشـاطي بالمدرسـة، وكان ذلـك باختيـار المعلميـن، الذيـن أبهرتهـم ثقافتـي، ومسـؤولي الأنشـطة الذيـن أعجبتهـم حريتـي التي كانـت تقـل لـدى أقرانـي؛ فمدينتنـا كانـت لـم تـزل مطبوعـة بطابـع الريـف الـذي لايعتـرف بالمدرسـة إلا مـكان للعلـم، ولا يوافـق الآبـاء، وأوليـاء الأمـور علـى تأخـر أولادهـم عـن مواعيد المدرسـة الرسمية، بسبب انضمامهم لأحدى الأنشطة.

مازلـت أثيـر حنـق لطيفـة، ومازالـت هـي تمـلأ أوقـات فراغهـا بحكايـات الجيـران، وصدقاتهـم، ونشـر أخبـاري علـى حبالهـم، حتـى وإن كانـت أحداثـي اليوميـة العاديـة، وتحركاتـي المتكـررة، وصفاتـي التـي أتصـف بهـا، هـي تعشـق معرفـة التفاصيـل المهـم والتافـه علـى السـواء، وتتلـذذ بحكيهـا بعـد إعـادة تدويرهـا؛ فتصنع من نفايات الحكايات أكياسا سوداء تخبئ فيها قبحها.

تزورهـا نبيلـة زوجـة الخـال التـي كانـت دائمـا تخبـر أنهـا تأتـي لزيارتـي، ثـم ماتلبـث أن تنفـرد بلطيفـة كصديقتيـن حميمتيـن؛ فأشـعر أنـي بجـوار وحشـين يخططيـن لالتهـام فريسـة يظنـان أطرافها مكسورة، عزلاء فلن تصمد بين أنيابهما طويلا.

ثـم تحـاول نبيلـة معرفـة إجابـات لأسـئلة تلـح عليهـا، أهمهـا: كيـف أتصـرف فـي مـا تركتـه أمـي، وهـل يفكـر أبـي فـي اسـتثمار هـذا المـال، وإن كان ينـوي، مانـوع ذلـك الإسـتثمار. وأكـوام مـن الأسـئلة التـي تنبثق من أسـئلة أخـرى كشـجرة خبيثـة تتكاثـر، ولابد مـن اجتثاثهـا؛ حتـى لا تقضـي علـى ميـاه النهـر. وكثيـرا ماكانـت تلتـف حولـي؛ لتمتـص إجابـات مـن فمـي، عندمـا لا تطفـئ معلومـات لطيفـة ظمأهـا؛ فـلا أجـد مـا أرد بـه سـوى ابتسـامة لا تحمل أي معنى.

قابلتنـي جـارة لـي تدعـى سـامية، كانـت تنـزل السـلم بسـرعة، لكنهـا تباطـأت، وأخـذت تمسـح علـى ظهـري، وتسـألني عـن أحوالـي، فأجبتهـا باقتضـاب، وكذلـك تسـأل عـن أبـي وزوجتـه، ولماذا لا أعيش معه؟ ووصتني على لطيفة قائلة بفجاجة:

– حاولـي اسـتيعابها، فهـي مـن يسـلي وحدتـك، إنهـا إمـرأة جيدة وخيرا لك أن تضميها لكنفكِ.

لـم تكـن سـامية هـذه الوحيـدة التـي تحـاول فتـح المقبـرة التـي أدفن فيهـا آلامـي، وذكريـات أمـي. في كل مـرة تعثـرت بمـن مثلها؛ فتراودنـي فكـرة الابتعـاد عـن ذلـك المحيـط؛ الـذي أرفـض الإقامة بداخلة، وأجنح عنه وأفر.

قلـت زيـارات أبـي التفقديـة، بعـد أن اطمـأن أنـي قـادرة علـى تحمل عـبء نفسـي. لكنه أتـى ذلـك اليـوم مهمومـا، حزينا، منكسـرا، لـم تكـن زيـارة من أجلـي، جلـس يتحـدث عـن مشـاكله، ويبسـطها

أمامي، ويزيد في فردها؛ حتى تخيلته يرغب في أن أمسك بطرفها الآخر:

- عندما تزوجت سلوى، كانت فتاة لم يسبق لها الزواج.

اعتقدت أن بعد الزواج بتسعة أشهر سوف تلد لي طفلا، لكن مرت الشهور ولم أجد أية بوادر، استشرنا طبيب مختص، أخبرنا أنها تعاني بعض المشاكل العادية التي ستحل بالوقت وبعض الأدوية، ومرت سنة، غيرنا فيها الطبيب ثلاث مرات، وكلامهم جميعا متشابه، وتشخيصهم يكاد يكون واحد. ثم ارتبت في الأطباء هنا، وسافرت بها للقاهرة، وطبيب مشهور، ومعروف بخبرته، فأمر بنظام علاجي، دوائي مكلف لكنه بعد عدة أشهر بدأ يؤتي نتائج إيجابية، وحدث أن حملت زوجتي طفلا بعد مايقرب من ثلاث سنوات زواج.

هي الآن على وشك الولادة، لكن أخبرنا الطبيب في آخر متابعة لأحوال الجنين أنه سيكون بنتا، استطرد أبي وهو يضع رأسه بين كفيه، وأحكم الإمساك، كأن بين يديه كرة يخشى انزلاقها. كان ذات متابعة أخبر أنه غير متأكد، لكنه هذه المرة أكد، جئنا من عنده توا، أوصلتها للبيت، ولم أطق البقاء فيه، شعرت بالاختناق؛ فجئت لزيارتك.

لم أدرِ ماذا أقول، فأنا لا أقتنع بكلامه، ولم أرَ سبب لكل هذا الأسى، كأن استعراضه فيلما ذا أحداث غير مقنعة، أو قصة بلا إثارة، ونهاية متوقعة.

شـعرت بشـماتة جعلتنـي أنتشـي، فقـد أراد تحقيـق كل شـيء، ودفـع الثمـن حيـن ضحـى بـي وبأمـي، ورفضنـا مـن أجـل ولـد، ولكنه لم يأتِ.

لـم أخبـره بمـا أشـعر، لكنـي أيضـا لـم أسـتطع مواسـاته، لـم يطاوعنِـي لسـاني، بحثـت عـن أي كلمـة تناسـبه، وتناسـب ألمـه الغير مقنع – بالنسبةِ لي – فلم أجد فسكت تماما.

انتظـر منـي أي انفعـال، فوجدنـي بـاردة، متحجـرة، صلبـة؛ فجمـع حزنـه، تعاسـته، وضعهـا فـي أحـدى جيـوب سـترته، ورحل، بعد فشله في إقناعي أن أحتفظ ببعضها.

بعدهـا بأسـابيع قليلـة، دعانـي لحضـور احتفالهـم بالمولـودة، عندمـا جهـزت نفسـي للذهـاب، وجـدت لطيفـة تـود اصطحابـي، فرفضـت، وأخبرتهـا أن مهمتهـا تنحصر فـي شـؤون البيت، سـاعتها كان موقفـي جامـدا، وكلامـي خشـن، حتـى ان لطيفـة تراجعـت، وهـي مذهولـة، فـزدت أنـا مـن قسـوة كلماتـي، والتـي كنـت وكأني أعاقبها على تدخل جارتي سامية، وتوصيتها عليها:

– لاتعتقـدي أنـي لا أعـرف مـا تخبـري بـه الجيـران كذبـا أنـكِ قريبـة لـي، وأنـكِ هنـا كأم بديلـة، لكنـي أضحـك بينـي وبين نفسـي علـى سـذاجتك، اعلمـي أنـي لسـت طفلـة، وتعلمـي كيـف تلتزمـي حدود وظيفتك التي تؤجري عليها.

منحتنـي لطيفـة الفرصـة، لإهانتهـا عندمـا لمحـت خوفهـا منـي، لكنـي أيضـا خفـت مـن أن تثـور لكرامتهـا مـن جـراء تطاولـي عليهـا،

فتترك خدمتي، ومرافقتي، هي لا تعني لي شيئا مهما، كطعام بلا طعم مضطرة لمضغه؛ حيث لا يوجد غيره. من الممكن الاستغناء عنها، فطعامها لا أحبه، وغالبا أشتري طعاما محفوظا، ولا تسليني بل أتسلى بكتبي، لكن بديلها هو العيش مع زوجة أبي.

توجهت للإحتفال فكان متواضعا جدا، كل المدعويين من أقارب سلوى، وليس حاضرا من أقارب أبي سواي.

كانوا جميعا فرحين، إلا أبي كان منزويا، شاردا معظم الوقت.

جلست بجانبه؛ فأنا لا أعرف غيره، ولست على استعداد للتعارف، ولكني كعادتي معه لم أتكلم. حتى دخلت والدة سلوى تحمل مها الصغيرة، وتقصدني، تثني على جمالي، وتقول، موجهة الكلام لأبي، وهي تنظر تجاهي...

- لم أكن أعلم أن لك ابنة حلوة هكذا، أطال الله عمرك حتى ترى مها مثلها.

ومدت يدها بالطفلة تناولني إياها، أمسكت بها نظرت بوجهها، والسيدة تقول: أختك، لم أعرف ما يمكنني فعله؛ فقاموسي الإجتماعي يكاد يكون فارغ؛ لذا يعتبرني الناس متعجرفة، بريئة، متعالية. فقبلت الطفلة التي يدعونها أختي وحسب.

أوصلني أبـي للبيـت سـيرا، تحدث معـي عـن أحوالي الدراسـية، واصدقائـي بالمدرسـة، أعطانـي بعـض النصائـح البلهـاء عـن كيفيـة اختيار الأصدقاء، ولايعلم أني أفر من وجه أي صداقة.

تحـدث معـي لأول مـرة عـن أحوالـه الماديـة السـيئة، والتـي زاد سـوءها تكاليـف عـلاج زوجتـه لمـدة تجـاوزت الثـلاث سـنوات، ومصروفـات إضافيـة لمولـود جديد، تـردد سـؤال بداخلـي، ولم كل هـذا مـن البدايـة؟ لـمَ لـم تحتفـظ بحياتـك الأولـى؟ لـمَ لم تسـتمر فـي عمـل مجـزٍ بالخـارج؟ أسـئلة لـم أسـألها، لكنـي شـعرت بـأن هناك هدف في جوف أبي من وراء حديثه.

وضعـت المفتـاح بالبـاب، وغيـر متأكـدة أنـي سـأجد لطيفـة، سـاورني شـك، أنهـا ربمـا جمعـت حاجاتهـا، ورحلـت، أخافتنـي الفكـرة؛ كانت كضـرس معطـوب، مزعـج، لكـن لايمكن الاسـتغناء عنه حيـث أنـه يسـاند ضـرس آخـر سـليم ويكمـل الشـكل المنطقي لابتسـامة يجـب أن تظهـر جميلـة. بيـد أنـي وجدتهـا، بالمطبـخ تجهز لغداء الغد.

ربمـا تمنيـت غضبهـا؛ لأحترمهـا، لكنهـا علـى كل حـال علمتني درسـا؛ أن لابـد مـن مواجهـة كل شـخص بمـا يسـتحقه، وبمـا هـو أهل له.

توجهـت لغرفتـي مباشـرة، غيرت ملابسـي، ونمـت فـورا، رأيت بالحلـم، أختـي مهـا وهـي تشـير لـي، بجانبهـا طفلـة وليـدة مثلهـا،

ولـم تكتـفِ بالإشـارة، لكنهـا تحدثـت معـي، اسـتيقظت مفزوعـة، خائفة مـن الطفلـة التـي تتكلـم وهـي رضيعـة تبلغ فقـط سـبعة أيام، نسيت ماقالته، كان مشوشا، لكني متأكدة من أنها نطقت اسمي.

تحـول سـريعا الخـوف لتعجـب، فأنـا نـادرا مـا أحلـم، كيـف تكلمت الرضيعة، ولمَ؟ ومن الطفلة الأخرى التي لم تتكلم؟

سـرعان ما نسـيت كل شـيء، وانخرطـت في نشـاطي المدرسـي الـذي أقصـد أن يلتهـم كل وقتـي، ومذاكرتـي، وقراءتـي فـي مكتبـة أمي التي أظن أنها لن تنضب أبدا.

انقضـى عامـي الدراسـي الأول فـي مدرسـتي التـي تعـودت عليهـا، وأصبح لـي فيهـا ذكريـات، كانـت الامتحانـات قـد اقتربت، وكان مـن تقاليـد المدرسـة، تأجيـل الاحتفـال بعيـد الأم إلى مـا قبل اختبـارات نهايـة العـام مباشـرة، ورغـم أنـي كنـت أشـارك فـي كل أنشـطة المدرسـة، إلا أنـي كنـت أعـزف تمامـا عـن تجهيـزات ذلك الإحتفـال، وأغانيـه المؤلمـة، وأناشـيده، وخطبـه الموجعـة، وعنـد استفسـارهم، لـم أجـب، لـم أوضـح؛ فلـم أتعـود تقديـم تفسـيرات عن ما يخصني لأحد.

وقفـت خلـف خيمـة الاحتفـال، وكان التلاميـذ قـد أخـذوا أدوارهـم، منهـم مـن سـيغني، ومنهـم مـن سيسـاعد المغنـي، والبعـض سـيرقص، والبعـض سـيقف بالخلفيـة، والباقي سـيتخذون أماكنهم في صفوف المتفرجين، يصفقون عقب كل فقرة.

كان يمكـن أن أتغيـب ذلـك اليـوم، لكنها رغبـة في الإحتفـال، أو ربما رغبة في العذاب.

اتخـذت مكانـي خلفهـم جميعـا، وخـارج الخيمـة وحـدي أراقـب مـن أحـد الفتحـات، ينتابنـي حنيـن يتبـادل مـع وجـع بالقلب؛ فتكون النتيجة رغبة تحاول اجتياحي؛ لأبكي.

لـم أحـب يومـا البـكاء أمـام أحـد، ولا فـي أي مـكان، البـكاء عندي له مكان واحد هو غرفتي ودون حضور.

حزنـي بعـد مـوت أمـي، علـى فراقهـا، كان متجـددا، لايفنـى، لاينسى، ولا يقدم. وإن لم يلحظ المحيطون، ورأوا عكس ذلك.

وتأكـدوا أنـي نسـيت، وتأقلمـت مـع الحيـاة، وانشـغلت بهـا؛ لأنهم لم يبحثوا داخلي؛ لعدم اقترابهم مني.

قطـع حزنـي، وذكرياتـي عـن أمـي ومعهـا، والتـي كانـت تـدور بحنايـا قلبـي حتـى تـكاد تخرجـه مـن بيـن الضلـوع، وأوقـف سـيل من أسئلة بلا معنى وأنا أراقب زملائي.

لمـاذا جميعهـم يمتلكـون أمهات؟ لمـاذا مرضـت أمـي بالذات؟ ولماذا لم تشفى؟ ولماذا أحيا بلاها طوال حياتي؟

هـل لاحظنـي وأنـا أعتصـر قمـاش الخيمـة المنصوبـة المحتويـة بداخلهـا الحفـل؟ إلتفـت علـى أثـر صـوت حذائـه بـأرض الفنـاء الترابيـة، عزمـت على توبيخـه؛ لقطعـه شـرودي، واسـترجاع آلامي، وأوجاع قلبي، وحُرقته.

لكنـي حيـن رأيتـه فكـرت فـي سـبب وجـوده بهـذا المـكان المختفـي، وعـدم اشـتراكه فـي مهرجـان الغنـاء والتمثيـل والرقص، والمـرح بعيـدا عـن أوقـات االدراسـة الروتينيـة، الإجباريـة، فالـكل جـاء بملابـس غيـر الـزي الرسـمي الخـاص بالمدرسـة، وبـدون حقيبـة الأدوات، كيـف يتـرك كل هـذا، ويفضـل الوقـوف وراءه، مبتعدا إلا إذا كان مكلوما بفقد أمه مثلي.

تراجعـت فـي اللحظـة الأخيـرة عـن زجـره، وطـرده، ومنعـه من التواجد بجانبي في لحظتي الحرجة هذه، فقلت له بتلطفٍ:

– مـا الـذي جعلـك تفضـل الاختفـاء هنـا علـى الظهـور فـي الحفل؟!

– لـم يوجـه لـي أي مـن المنظميـن دعـوة، ولـم يسـند لـي أحدهم دور.

– أنت في الصف الأول؟

– نعم.

– أنت في فصلي، أظنني رأيتك قبل ذلك؟

– نعم.

– ما اسمك؟ عفوا؛ أنا لا أعرفك جيدا، أظنك كثير التغيب.

– ليس تغيبا، إنما أنا محول حديثا من مدرسة أخرى.

- ألذلك لم يدعونك؟

- أظن أن لا أحد يود معرفتي أو التقرب مني.

تفحصت الفتى؛ فوجدت ملامحه تخلو من الجمال، والجاذبية؛ فهو رفيع، رفيع جدا لدرجة الإيحاء بأنه سوف ينكسر، يعطيه المظهر النحيف، طولا فوق طوله، فيبدو ذراعيه طويلين وساقيه كذلك، وعيونه الزرقاء فوقها نظارة طبية، وشعره البني الفاتح محلوق بشكلٍ جائر.

فعلمت لم الأقران بعيدون عنه؛ فهم في الغالب لا يدنون إلا من صاحب أو صاحبة الجمال، الجاذبية، والمتفوقون الأذكياء، أو الإجتماعيون اللطفاء.

- أقدم لك نفسي إذن: أنا ياسمين مراد

- أعرفكِ

كنت أعلم أنه يعرفني؛ فأنا ممن تتوافر فيهم الصفات المطلوبة ليكونوا نجوما. لكني قصدت أن يعرفني بنفسه، خاصة أنه لم يجب عن سؤالي بشأن اسمه.

- اسمي اختيار.

منعت نفسي بصعوبة عن الضحك، فاسمه وحده يكفي لابتعاد الجميع عنه.

كان ينظر لقدميه محرجا. لكني لا حظت أنه قليل الكلام، ولا يسأل عن شيء، وأنا فقط من أوجه الأسئلة، وهذا ليس من طباعي. شدتني صفته التي لا أجدها في كل من حولي تقريبا، والسبب في انعزالي عن الناس وتحجيم علاقاتي بهم، وعدم تكوين صداقات حميمة مع أحد؛ فالصداقة لها قوانين وأهم قوانينها، أن يعلم الصديق كل تفاصيل صديقه، ويسأله عنها، ويدقق، وأنا غير مستعدة أن يعرف الآخرون عني تفاصيل حياتي، فيشفقون علي، وأصبح مثار عطفهم، ليتمي، وتخلي أبي عني، ووحدتي مع تلك اللطيفة، وغربتي. إن العزلة كانت حلي الوحيد.

كان الحفل في أوجه، والفقرات تتتالى.

فعرضت عرضا على اختيار:

- مارأيك نغادر، نتمشى حتى العم وصفي ونتناول عصيرا؟

- من وصفي هذا؟

- أوه، نسيت أنك غريب عن المدرسة، لكن سأخبرك عنه ونحن في طريقنا إليه قريب هو جدا من هنا، إنه صاحب متجر عادي، لكن يبدو أنه ذكي، احتل الرصيف أمام محله، ووضع كراسي، وأنشأ يقدم مشروبات، ومأكولات مغلفة، مما تجدها في أي متجر، ثم تطور فاشتري كشكا صغيرا، وعين فيه شابا وأخذ يصنع بعض الفطائر البسيطة، ثم تطور أكثر وصنع بطاطس محمرة..وأظنه سيتوسع أكثر.

ها قد وصلنا.

شـرعنا نطلـب، نـأكل، نشـرب، وأسـأله عـن سـبب انتقالـه لمدرستنا، وهو يجيب بسلاسةٍ دون ضيق وكأنه كان ينتظر أن يُسأل.

- كنـت فـي مدرسـة عاديـة فـي قريتـي، ثـم نصـح أحدهـم أبـي أن مسـتوى الدراسـة بالمدينـة، وبمدرسـةٍ خاصـة، تهتـم باللغـات لهو الأفضـل؛ فشـرع أبـي فـي إجـراءات الإنتقـال، وجهـز الأوراق، والمسـتندات، لكـن يبـدو أنـه تأخـر، وكـذا تأخـر التوقيـع علـى الطلـب المقـدم منـه بالموافقـة؛ لذلـك التحقـت بكـم فـي هـذا التوقيـت المتأخر...لكنـي كنـت أذاكـر دروسـي بانتظام، ولـم يضيع مني درسا، ولم يفتني الإلمام الكامل بالمنهج.

- ألذلـك أنـت معنـا فـي الفصـل الأخيـر- حسـب الترتيـب الأبجدي- رغم ان اسمك يبدأ بحرف الألف؟

- أظن ذلك.

انتظـرت أن يسـألني أي سـؤال؛ للاستفسـار عـن أي اسـتفهام عنـي، ولـو علـى سـبيل الـرد كمـا سـألته أنـا. لكنـه لـم يفعـل؛ فأعجبنـي هـذا، حدثـت نفسـي، أن هـذا الفتـى ربمـا يكـون صديقي الأول في هذه الحياة.

نظـر اختيـار فـي سـاعته الكبيـرة التـي فـي يـده، والغيـر مناسـبة لسنه تماما، وهب واقفا، قائلا: لقد تأخرت.

- عن ماذا؟

– السائق الذي يوصلني يوميا ذهابا إيابا. هو يعلم موعد انتهاء اليوم الدراسي، ويأتي بالموعد تماما، وأخاف ألا يجدني.

– لا تقلق، باقي عشر دقائق على موعد الانصراف، والمسافة من هنا لهناك تستغرق أقل من ذلك.

سرت معه، حتى سائقه الذي كان منتظرا، دلف للمقعد الخلفي، وقبل توديعي، عرض علي توصيلي للمنزل؛ فشكرته، وسار السائق بالسيارة، حتى اختفت. وأكملت أنا الطريق وحدي.

نسيت اختيار فورا، وعادت ذكرى أمي تناوشني، والأسئلة مستحيلة الحل تطاردني.

مرت الأيام الباقية على امتحان نهاية العام، لم يزرنِي فيها أبي سوى مرة واحدة، كان فيها، مكدر، سئم، مغتم.

لاحظت أن أبي لم يعد يزورني إلا وهو مهمومٌ متعب، يأتيني يشتكي أحواله، ثم يرحل.

تحدث معي للمرة الثانية عن شدة، وضيق؛ بسبب قلة المال، أسهب في شرح الأسباب في هذه العسرة وهو ساهما وقد مسه هم:

– زادت المصروفات، والمدفوعات بشكل كبير منذ بداية البحث عن علاج يعجل بحمل سلوى، ثم استمرار الإنفاق على الأطباء، ثم علاجات الحمل، والولادة، ثم مصروفات

الصغيـرة؛ التـي تمـرض كل شـهر تقريبًـا بالإضافـة لإحتياجاتهـا الأخرى.

قـال أبـي مـا قـال، وانصـرف، لـم أشـترك معـه فـي الـكلام وتظاهـرت بعـدم الإنصـات، هـو نفـس الـكلام، والموضـوع وربمـا الألفـاظ كمـا المـرة السـابقة التـي فتـح فيهـا أزرار صـدره وحكـى، ولم أكن في حاجة لأسمع ثانية.

لـم يسـأل عـن اسـتعدادي للإمتحانـات، وأظنـه نسـي موعدهـا، ولا أعلـم مالـذي حـدا بـه ليسـمعنِي كلامـه الممـل، دون سـبب واضـح، وكعادتـي تناسـيت؛ حتـى أجنـب عقلي مشـقة التفكيـر فيما لا يهمني.

أول أيـام الإمتحـان، رأيـت اختيـار، كان فـي لجنـة غيـر لجنتـي، سـألته للإطمئنـان علـى حلولـه؛ لاعتقـادي أنـه سـوف يسـتصعب الأمر، لكني فوجئت بإجاباته التي تلاها أثناء مراجعتي معه.

بـدأت العطلـة الصيفيـة، لـم يكـن لـدي مـا أشـغل بـه الفـراغ الناتـج عـن غيـاب المدرسـة، والمذاكـرة؛ فكنـت أقضـي فـي مكتبة أمـي، التـي صـارت مكتبتـي معظـم الوقـت، وقمـت بهـد نظامهـا، وتنظيفها، إعادة ترتيبها بشكل جديد، بطريقة تريحني.

كنـت أتـرك لطيفـة فـي الخـارج يلتهمهـا غيظها منـي، وقـد كنت حرمت عليها الاقتراب من هاتيك غرفة وحجرة نومي.

كنت كذلك أزور أبي تحت إلحاحه؛ فألاعب مها طوال فترة وجودي عنده، متلاشية أمها تماما، وأرفض دعوة أبي للمبيت

واكتشفت بعد فترة قليلة، أنه إنما يرغب أن أزوره دائما، حتى لا يتحمل مشقة زيارته هو لي.

تسرب لي شعورا، أني أصبحت عبئا، وثقيلا على أبي.

حاولت الإنسحاب من حياته؛ حتى لا يؤلمنِي ذلك الإحساس، الذي بات مؤكدًا لدي، وتحولت العلاقة الأبوية لعلاقة ضعيفة، تتقطع أواصرها كلما مر الزمن، ولم يتبقَ من تلك العلاقة على قيد الحياة سوى إسمي المتبوع دائما باسمه، ومبلغا ماليًا ضئيلا ينفقه على متطلباتي المدرسية، وبعض الأغراض المنزلية القليلة الأخرى.

حل العام المدرسي الجديد، بلا احتفال، ولا طقوس خاصة، استقبلته بفتور الذي صار من أهم خصائصي، وببعض سعادة؛ لأنني سأجد ما أتلهى به، وأرهق نفسي في الأنشطة الرياضية، الفنية، وتحصيل المواد الدراسية على اختلافها.

جهزت في اليوم السابق لبداية المدرسة حاجات العام السابق، من أدوات مكتبية كانت كما هي في جرابها، وملابس العام الفائت، سواء الزي الموحد أو ملابس الألعاب، كان علي أن أشتري فقط بعض الكراسات، والدفاتر والأقلام؛ فحصرت ما معي من نقود سواء معاش أمي الذي كان ضئيل جدا؛ لعدم

وجودها بالخدمة الحكومية سوى فترة صغيرة. أو ما بقي من مصروف البيت الذي يدفعه أبي وهو أيضا قليل جدا.

خرجت لأشتري ما ينقصني والدهشة تقفز فوق ملامح لطيفة؛ فيصدر كل ملمح حركة تدل على حيرته، فالعين تتسع، والفم ينعوج والحاجب يرتفع.

وأنا أعلم أنها مذهولة من ادخاري المبالغ فيه، وعدم الإنفاق بصورة تلائم ممتلكاتي وكوني أقبض على إرث يعد ضخما، وأنتظر جنيهات معاش أمي، ومساعدة أبي.

قد سألتني مرة عن سبب عدم شرائي ملابس جديدة والإكتفاء بملابسي التي أحضرتها معي من الخارج، وكذلك كل أدواتي، وحتى حقيبة المدرسة... ولكني كالعادة لم أشفِ غليل فضولها. وحتى لو كنت تكلمت وشرحت لها أسبابي في عدم رغبتي الاقتراب من مال أمي؛ وأني أكره شعور أني استفدت من موتها، وقد تمنيت لو بقيت دون مليم واحد. لكن سأكون كإنسان يحادث دجاجة تنصت إليه، ومن المستحيل أن تفهمه.

فهي فقط تنتظر وتريد الأخبار لتطير بها على الجارات الائي أصبحن صديقاتها، سامية، وإلهام أيضا، التي سكنت حديثا بالعقار الذي به شقتي، واكتشفت أنها تعلم قصة حياتي، وتذكر تفاصيل لا أتذكرها أنا، وهي تستوقفني عند مدخل العمارة، لتعرض مساعدتها، فأنا وحيدة، بلا أهل تقريبا، وأستحق العطف، لم تصرح بهذا لكنه كان في طيات كلامها.

كذلك العائلة التي تقطن آخر الشارع الذي أسكنه، وكانوا يمتون لي بصلة قرابة بعيدة، ويعتقدون دائما أن تلك الصفة تمنحهم حقوقا كثيرة، لأن يتتبعوا أخباري، ويهتمون بخصوصيات تهمني وحدي.

كثيرا ما عرضوا عروضهم لإستضافتي لتناول الغداء معهم خاصة في أيام المناسبات، وكأنني بلا بيت، وواجب عليهم الإشفاق على يتمي، وحصد حسنات تضاف لميزانهم على حساب كرامتي.

وكلما زادت رأفتهم بي وتعطفهم على حالي، ازددت كرها لوضع أُجبرت عليه، لا اختيار لي فيه. رأيتهم يتباهون بحنانهم ورأفتهم بي، وحبهم ليتيمة بلا أهل.

رفضتهم جميعا وكل ما يحملونه لي من حبٍ، وبالغت في إظهار قوتي وأعرضت عنهم كلهم.

كان اليوم الأول للعام الدراسي، صادما للبعض ممن يتنزهون، ويلعبون، ويحيون حياة طبيعية طوال العطلة. وبالنسبة لي كان مبهجا لأنه كان نهاية للملل، والغرق في الأفكار.

قابلت اختيار الذي علمت أنه كان من المتفوقين بالنسبة لاختبارات العام السالف، تمشيت معه قليلا، تدارسنا بعض الوقت وسط تعجب الزملاء، من اندماجي مع أحدهم لأول مرة، ومن الشخص الذي أقترب منه.

ثم مالبث الكثير من التلاميذ والتلميذات أن تجمعوا حولنا، واشتركوا في موضوعاتنا، وتعرفوا عليه مثلي، وبمرور شهر واحد من شهور المدرسة، كان اختيار مفضلا لدى الكثيرين؛ بسبب ميزة اختيار؛ وهي نبوغه الواضح في الرياضيات بفروعها.

كان الزملاء يستفيدون منه في حل بعض المشكلات الرياضية، وبعدها ينفضون من حوله. حنقت لهذا، نصحته ألا يتجاوب معهم، وألا يستجيب، حتى يضطرهم؛ لتغيير أساليبهم معه.

لكن اختيار لم يسمع، وساعدهم جميعا، وظلوا لا يتذكروه إلا إذا احتاجوه ثانيةً.

لم يكن له صداقة حقيقية سواي، وكذلك أنا.

أمسينا نخرج من المدرسة يوميا بعد انتهاء مواعيدها، نتمشى حتى سيارته التي لا تخلف موعدها أبدا.

وفي أحدى المرات، كان يوم خميس، والخروج كان مبكرا من المدرسة، فتحدثت عن رغبتي في زيارة الريف، وتخيلي له في الصباح الباكر، عندما تنشر الشمس أشعتها، وتنطبع على صفحة الترعة التي تشق القرية لنصفين والأشجار الكثيفة، الوارفة على جانبيها، والأراضي الزراعية المفرودة وعلى امتداد البصر لا يعوقه إلا الأفق. وأصوات العصافير التي تكمل اللوحة العبقرية بألحانها الصافية.

فضحك اختيار ضحكته الوديعة قائلا: إن ما تصفيه مُحالات من نسج الخيال.

فقلت بتحمس:

- أليس بيتكم يتوسط مزرعة؟ أليست المزرعة تحتوي أشجار فاكهة متنوعة؟ ألست تطارد الفراشات الملونة؟ ألست تمرح على أرجوحتك وسط الطيور، وأنت تراقب أبراج الحمام؟

قهقه اختيار هذه المرة قائلا: أريدك أن تأتي معي؛ لتشاهدي بنفسك تلك الظواهر الطبيعية البديعة، وترصيديها بدقة.

- موافقة..

أغلق اختيار فمه على ضحكته، امتقع لونه، استطعت أن ألحظ تردده، تلجلجه وهو يؤكد دعوتي، رغم وضوح تراجعه فيها.

قلت له: إن الوقت غير مناسبا، فلم يدعنِ أكمل...

واضطرب لملاحظتي، وأكد لي هذا أنها في محلها.

لكني لم أستطع اكتشاف سبب توتره، حين وافقت على عرضه الذي يبدو أنه كان من باب المجاملة، وأنه كان متأكدا أني لن أقبل.

انتقلت السيارة سريعا لطريق خارجي، يمر على القرى المجاورة، ثم أخذت السيارة تبتعد، تمر على حقول مترامية حينا، وعلى بيوت حينا آخر.

توقفت فجأة أمام بيت على الطريق، تعجبت:

- أهذا بيتكم!

- نعم...

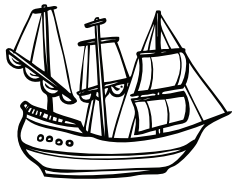

(٧)

درس جديد، عائلة جديدة

يحصل الإنسان العادي على معارفه من بيته الأول، لكن إن كان بيته خاوٍ! فالصدفة وحدها تشكله بما تؤتيه من مواقف غير متوقعة.

كان أكثر توترا. تركني عند باب السيارة، واختفى مسرعا، وبعد قليل وجدته يظهر من عمق دارهم بين أمه، أبيه.

قابلتني أمه بحفاوة، وترحيب، ونظر أبيه لي نظرة متفحصة، ثم سلم سلاما عابرا، ومضى دون كلام..كان نسخة من اختيار، أو إخيار نسخته المصغرة، ماعدا لون العين فقط كان لأمه التي كانت متناسقة القوام تقريبا، ذات وجه جميل، ملامحها هادئة، وكلماتها رزينة، تعرفت عليَّ بنفسها، دون أن تنتظر من ابنها تعريف.

دعتني للجلوس في حجرة مفتوح بابها في الشرفة الكبيرة التي تلف المنزل، وتركتني. اختفت لا أعرف إلى أين.

أثـاث فخـم، قديـم، مغطـى بطبقـة رقيقة مـن التـراب. من شـرفة المنـزل؛ يُـرى الطريـق الرئيسـي للبلـدة، وهـو طريـق مرصـوف، حديـث، سـريع، وهـو طريـق يربـط مدينتيـن كبيرتيـن، فـي منتصفهما قرى، تلك القرية إحداهن.

لاحظـت متجـر كبيـر ملاصـق لـه مخـزن واسـع، يبـدو مـن نظرتي الأولى له أنه لتجارة الأسمدة، والمبيدات الزراعية.

فـي الجهـة المقابلـة، مبـان أخـرى.. لـم أصـادف أي مـزارع أوحقـول فـي تلـك البقعـة.. حتـى البيت ليـس أمامـه أوخلفه سـوى شجرة واحدة، وآثار شجرة أخرى مقطوعة.

اقتربـت السـيدة، ووراءهـا خادمـة بشوشـة، تذكـرت حيـن رأيتها لطيفة.

قدمتـا لـي واجـب الضيافـة.. وجلسـت والـدة اختيـار معـي تتكلـم، كانـت حولهـا هالـة مـن السـلام، وتشـع مـن داخلهـا راحـة واطمئنان.

- أنتِ جميلة يا ياسمين، كنت أتمنى ابنة مثلك.

- أشكرك يا....

- ناديني بخالتي ضحى.

- طنط ضحى، اسمك جميل كأنتِ.

– لـم أكـن أعلـم أن اختيـار سـيحصل علـى أصدقـاء بهـذه السرعة!

– في الحقيقة اختيار ليس له صديق غيري.

– يبـدو أنـي سـأحبك ياسـمينة، فأنـت طيبـة، رقيقـة، ولكـن لـم لا تغطـي شـعركِ حبيبتـي، أنـتِ فـي السـابعة عشـر أليـس كذلـك؟ ألم تخبرك أمك، أم هي أيضا غير محجبة؟

– في الحقيقة، توفت أمي منذ قرابة الثلاث سنوات.

تحرجـت ضحـى، دمعـت عيناهـا فجـأة، ضغطـت علـى يـدي، وقالـت: أطـال اللـه عمـرك حبيبتـي، أنـت بـلا أم، وأنـا بـلا ابنـة، سـبحان اللـه، وانفـرط دمـع مـن عينيهـا، ثـم غيـرت الموضـوع بسـرعة، وتحدثنـا فـي مشـاكل الدراسـة، وصعوبتهـا، والزمـلاء، وضحكـت معهـا، صممـت أن أتنـاول الغـذاء عندهـم؛ فرفضـت، فأصـرت، حضَّـرت خادمتهـا الطاولـة، ونـادت علـى اختيـار، وأبيه، تناولـت ملعقـة واحـدة فقـط، وأنـا أعانـي تحرجـا شـديدا كمغنـي علـى مسـرح لأول مـرة. وارتبكـت كطفـل بـأول يـوم بالمدرسـة. وقفـت، أصريـت علـى الإنصـراف؛ فقـام الأب، اسـتدعى الخادمـة، أمرهـا أن تسـرع فـي اسـتدعاء السـائق، الـذي بـدا أنـه فـي بيـت مجـاور، وفـي دقائـق كنـت علـى عتبـة الـدار، داخل حضـن ضحى، الـذي لـم أرغـب الخـروج منـه أبـدا، وكانـت الخادمـة البشوشـة، وأخـرى معهـا، يحمـلان لفافـات، كهديـة مـن أسـرة اختيـار،

حاولت رفضها بكل ما أوتيت من قوة، لكن باءت محاولتي بالفشل.

رجعت البيت، والسائق ورائي، يحمل ما أرسلته ضحى، فتحت الباب؛ فوجدت أبي يسبقه غضبه، يكاد يشتعل، ولطيفة بجانبه تقف في تشمت، وثبات، ونظراتها المتسائلة، تنزلق عليَّ من أعلى لأسفل

صرخ وكأنه يزأر، فشعرت كأني طفلة تنتظر عقاب وتود الإفلات منه..

- أين كنت؟

نظر بساعة الحائط، أشار عليها

أربع ساعات، وزيادة، لماذا؟

انطقي يا فتاة.. منذ أن حدثتني لطيفة، وأنا قلق، حتى ملابسي لم أكن أعلم كيف ارتديتها.

وما هذه الأشياء معك، ومن ذلك الرجل الذي رافقك إلى هنا؟

تقمصت دور متهم، وأنا كارهة....

- لم أكن أعرف أنك ستقلق، أو أنك ستعرف أيضا، ونظرت الى لطيفة.

كنت مع صديق لي، في بلدته - هي بلدة صغيرة قريبة - وقضيت هذه الساعات مع أسرته، وها أنا ذا أمامك.

- أجننتِ، كيف تتجرأين، وتسافري، ومع ولد لا نعرفه، ألا تعلمي أن فعلتك هذه مشينة، غبية!

كانت لطيفة ساعتها تضع يدها على فمها؛ لتبين وتؤكد لأبي مدى فداحة خطأي، وأبي لم يكن ينتظر منها هذا فقد كان متأججا وحده، وأخذ يصرخ حتى أصيبت أحبال صوته وكادت تتمزق.

- لا تتكرر هذه الفعلة الشنعاء تحت أي ظرف، لاتفعلِي مثل ذلك أبدا، ثم بدأت ملامحه تستقر بمكانها، ويخف تمدد عروقه، وتسترح دقات قلبه.

دخلت حجرتي، بعد مغادرة أبي، تفكرت في كلامه، فوجدته محق، لكن من أين لي أن أعلم، دون أن يخبرني أحد، فالإنسان العادي يستطيع معرفة الصواب والخطأ وحده، لكن لا يستطع معرفة ما يكتسبه من خبرات الآخرين إلا إذا عايشها، وتعلمها.

ما فعلته كان ظاهريا صائبا، لكن أنَّى لي أنْ أعرف ولم يوجهنِي أحد، ولم يربينِ أحد؛ فحصيلتي من المعرفة الإجتماعية، تكاد تكون معدومة.

لـم أشـعر بالذنـب؛ لأنـي كنـت كمـن شـرب خمـرا دون أدنـى معرفة بأنها مدرجة في قائمة المحرمات.

لكنـي علمـت لـمَ تـردد اختيار حيـن قبلـت الذهـاب معه، وسـبب تعجب والده، وأدركت كم سببت له حرجا، يتوجب الاعتذار:

– أعتذر لك لما سببته لكم بالأمس من ارتباك، وإزعاج.

– لا عليـكِ، فأمـي تحـب الضيـوف، لكـن، أنـا الـذي أعتـذر لكِ؛ لإفساد خيالك عن الريف، وأجواء القرية.

– لا تمازحنـي، ولا تسـتهزئ بخيالـي، إن بلدتـك كبيـرة، لكنكم لا تسـتغلون مازلتـم الفضـاء الخلفـي لمنزلكـم، والذي لو اسـتفدتم بـه بزراعتـه أحواضـا مـن زهـور مثـلا، ووضعتـم أرجوحـة كبيـرة، وقسـمتم المسـاحة لحديقـة، وممشـى، وغيـر ذلـك مـن أفـكار أتعجـب لعـدم ورودهـا بعقولكـم، سـوف يعـوض ذلـك قسـوة المـكان، الـذي لاتُـرى فيـه غيـر سـيارات سـريعة متتاليـة تتزحلـق على طريق أملس يثير غبار مستمر.

ضحـك اختيـار: وصفـك مبالغ فيـه دائمـا، هـذه صفـة لأول مرة أتعـرف عليهـا فيـكِ، البلـدة لهـا عمـق ليسـت هـي البيـوت العاليـة البارزة في واجهة القرية، ويعتبر هذا المكان الأرقى بالبلدة

أمـا بالداخـل فهنـاك البيـوت الفقيـرة، والمتوسـطة، والحقول في الطـرف الجنوبـي، وهنـاك فلاحـون يزرعـون حقولهـم، فـي زيـارة لاحقة سوف أصطحبك إلى هناك.

ضحكـت ونحـن نتمشـى فـي طريقنـا اليومـي لمتجـر وصفـي، يبـدو أن بلدتـك تحتاج زيـارة أخـرى فعـلا، لكن لابـد لهـذه الزيارة من استعدادٍ خاص.

مـرت السـنة الثانيـة، وفجـأة أصبـح مطلـوب تحديـد نوعيـة الدراسـة العلميـة، أم الأدبيـة، إختـرت النـوع العلمـي، ودراسـة العلوم، واختار اختيار العلمي أيضا ودراسة الرياضيات.

كنـا نلتقـي كثيـرا فـي المدرسـة، المكتبـة، وحصـص الأنشـطة، وعند العم وصفي.

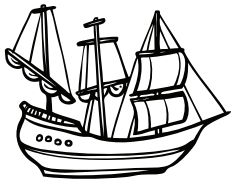

(8)

عــــزفٌ بائـــس

وسـط أرضٍ شاسـعة، مزروعـة كلهـا بزراعاتٍ شـتى، يقـف عودٌ أخضـرٌ وحده لاينتمـي لأي نبـات بالجـوار، رغم أنـه يبدو يشـبههم. يقـاوم احتماليـة الانكسـار، يطوحـه الهـواء، ومتمسـكٌ هـو بثباتـه، ولا يعلـم أحد كـم يعانـي جـراء تلـك المقاومـة، إذ يعتبرونـه يتمايل سعادةً وهناء، كنت أنا ذلك العود.

زارنـي أبـي بعـد فتـرةٍ مـن الغيـاب، والانقطـاع الـذي اعتدتـه، واقتصرت رعايته على مكالمات هاتفية، من وقتٍ لآخر

كان مهمومًـا، رسـم البـؤس علـى ملامحه الغـم، والحزن بشـكلٍ قـاس. أقلقنـي شـكله، وأفزعتنـي انحنـاءة الـذل فـي كيانه، لـولا أنيً تعودت الاحتفاظ بانفعالاتي داخل أعماقي.

تكلم بإعياء...

- لقـد حملـت سـلوى بحمـلٍ جديـد، توسـمت هـذه المـرة تحقيـق مـرادي. مـرت الأربعـة شـهور الأولـى، وقـد أُختبـرَ صبـري

اختبـارا صعبًـا، وأنـا أمـرر الأيـام الواحـد بعـد الآخـر، أترقـب، والأيـام ثابتـه، والزمـن جاثـم فـوق ضلوعـي، يخنقنـي، حتـى أذن اللـه بمرورهـا، ووصـل الشـهر الخامـس، وزرنـا الطبيـب الـذي تحتـوي عيادتـه أحـدث جهـاز لكشـف نـوع الجنين...وأخبرنـا أنـه بنتا أيضا.

كـدت أصـرخ فيـه، لـولا أنـي أعـرف أن لطيفـة تتسـمع؛ تركتـه يكمل عزفه البائس، وأنا أتكتم حنقي، وأبتلع غيظي....

لقـد أصبـح لـدي ابنتيـن، تخيلـي معـي أنـي أصبحـت أمتلـك اثنتيـن. وحلمـي طـوال السـنوات السـابقات أن تكـون زريتـي بنيـن أو حتى متنوعة بنين، وبنات.

سـألت نفسـي، وأنـا أحـاول كبـت اسـتفزازي..هل تناسـاني أبي لهـذه الدرجـة؟ إنـه حتـى لـم يذكرنِـي ضمـن عـدد بناتـه، لقـد أسقطني عمدا من ذاكرته، وحياته كلها.

لـم أسـتطع التشـفي فيـه أو التشـمت، لكنـي أيضا لـم أقـدر على تجاهل مـا سـمعت، شـردت لحظـة، غبـت فيهـا عنـه، خيل لـي أني أحادث نفسي....

- خربـت حياتنـا سـابقا، وتحمـل أطنانـا مـن همـوم، وتأتينـي أشـاركك أكـوام حزنـك، مـا ذنبـي فـي حمـل همومـا إضافيـة فـوق ظهري؟

ألا تُجرب مرة الرضا بما قُسم لك؟ ألا تُجرب يومًا الانصياع لقدرك والتعامل معه، وإرغامه على التغير وتنفيذ ما ترغب.

لماذا أنت سلبي، عنيد، تغالط الصحيح، وتسير دوما في الإتجاه الخطأ؟

عموما هي حياتك فاعبث بها كما ترى، لكن لا تحملني جزءً من مشكلاتك، فيكفيني ما أعيشه من معضلات، إحداها إهمالك لي، ونسيانك لحقوقي، وسعيك الدائم المستمر وراء خرافات، لاتسكن إلا أركان عقلك وحدك، وكنت أنا ضحيتها الأكثر تأثرًا.

انتبهت، كان ينظر إليَّ باندهاش، يبدو أنه لحظ غيبتي عنه داخل خيالي، أفقت من تلك اللحظة الغير واعية، وتمنيت لو سمع ما تحدثت به لنفسي....

مؤكد أراد مشاركتي له، والإمساك معه بطرف مأساته التي بسطها أمامي.

هل لا يدري عن معاناتي فعلا؟ هل يعتقد أني سعيدة وأنا وحدي أعيش حياة بظروف يهيئ لي لا تحدث إلا واحد بالمليون، بفراغ دائم، وغموض دائم، أغلف به نفسي، حتى لا أقع فريسة لشفقة الناس، وعطفهم؟

انهـرت علـى كرسـي، أسـلمت رأسـي ليـدي كمـن حلـت بـه مصيبـة غيـر متوقعـة. توقفـت عـن الـكلام الـذي لـم يسـمعه، وربما عن التنفس، أصيبت حواسي بتجمد.

رفعـت رأسـي، وجـدت أبـي، ينظـر للفـراغ، دون كلام، ودخـان سـيجارته التـي لا أعلـم متـى أشـعلها، يسـبح أمامنـا ببطـئ، خيل لي أنه ينتفـض، وهو سـاهم مـازال داخـل هالتـه الحزينـة، رأيـت حجرة الاستقبال صامتة كالأموات، لا يقطع صمتها سوى نبضينا.

اسـتمريت فـي روتينـي اليومـي، المدرسـة، المذاكرة، حتـى قرابة نهايـة النصـف الأول مـن السـنة، وانتشـر بين الطـلاب أن كثيـر منهم لايكتفـي بشـرح المدرسـين بالمدرسـة، رغـم أننـا بالمدرسـة كنـا نظـل يومـا كامـلا، ليـس كبقيـة المـدارس العاديـة، التـي يلجـأ طلابهـا لـدروس تقويـة؛ لعـدم اسـتفادتهم بمدارسـهم، أوعـدم تلقيهم عناية بها.

هاتفـت أبـي؛ ليدبر لـي مبلغـا إضافيـا، رغـم أني لـم أكـن أحتاج لهـذه التقويـة، ولـم أقبـل بهـا فـي بدايـة معرفتـي بهـا، لكنـي فكرت أن أجربها، وأحكم بعدها على جدواها.

حضـر أبـي، واعتقـدت أنـه أحضـر معـه مـا طلبـت، لكنـه أعـاد علي شكواه المتكررة، من اضطراب أحواله المالية، وتعثر

ظروفـه المعيشـية، خاصـة بعـد وصـول مولودتـه الجديـدة، التي قدمـت للدنيـا وسـط رفـض أبيهـا لهـا تمامـا؛ فلـم تحظـى بمراسـم احتفالية كأختها الكبرى.

أخبرني أن مولودته الحديثة، تعاني من صعوبة بالتنفس؛ بسبب ولادتها المبكرة، وأن هناك أدوية، وزيارات متكررة للأطباء لمتابعتها.

ثم أردف، وهو ينظر تجاه الأرض: ألا يمكنك الإعتماد على ما ورثتِ، ثم أكمل باستجداء: أنا لا أطلب مَساعدتك، وإن كان بإمكاني طلبها؛ إن لديك ثروة والمال يتضاعف بالبنك سنويا، وأنتِ وأنا نحتاجه، وبشدة، فلم لا؟

أذهلني أبي، رغم تعودي على عدم اندهاشي من تصرفاته، لكنه تلك المرة جاء على غير توقعي؛ فلم أحتمل..

– ألم ترفض هذا المال سابقا، ألم تجاهد أمي من أجل تحسين أحوالك المادية، ورفضت بكل قسوة وتعالٍ، حتى رفضتها هي نفسها، تريدني الآن أتصرف في مالٍ فقدت في سبيله حياتها دون التمتع به، تريدنا أن نتمتع ونعيش وهي هناك تحت التراب؟!

وهل يمكنني الاستمتاع بمال الدنيا كله بلاها، هل سأكون سعيدة إذا اشتريت، وتنزهت، وحييت في نعيم وأنا محرومة من حضنها، وكان كل نعيمي.

قال بأسف بدا لي مصطنع.. وبعض نصح..

– يبدو أن فقدك أمك سبب لك عقدة من أموالها لكن أنت مخطئة، هذا حقك، وقدرها. دعينا نذهب للمحكمة، نحرر

طلب لصرف بعض المال، أو أذهب وحدي، وسوف تحصلين على كل ما حرمتِ نفسك منه، وعند نفاذ النقود، نعيد نفس الخطوات.

– مستحيل، لن أذهب معك، وإياك أن تذهب وحدك، سوف أخبر محامي أمي، رغم أن علاقتي به مقطوعة، لكن يمكنني مهاتفته؛ لاتخاذ إجراءات قانونية حيال أي تعدٍ على ممتلكاتي.

– هل تعتقدين أني لص، بالطبع لن أجري إجراء إلا بموافقتك

أنت ابنتي رغم جحودك، لكن إمكانياتي لا تكفي، ولست على مايرام ماديا.

غادر أبي الذي وصفني بالجحود، وهو الذي لا يتصل بي إلا إذا احتاجني، وكأنه ينساني، ثم يذكرني فجأة.

بعد مغادرته بساعتين، وجدت الهاتف يدق وعلى الجانب الآخر نبيلة زوجة خالي: إن أبيك لديه كل الحق فيما طلب، لماذا تحرميه، ونفسك من حياة مريحة، سعيدة؟

– ومن أخبركِ؟

– هل ذلك مهما الآن، الحياة صعبة يا ابنتي

–ابنتك!

– نعم كمثل أشرف تماما ابن خالك، أتعلمين كم حاله يتدهور، لقد خسر تقريبا كل ما أعطته له أمك رحمها الله،

مشـروعة فـي تجـارة الأدوات الكهربائيـة، ابتلـع المـال، ثـم لـم يسـتطع جمعـه، وهـو الآن فـي موقـف حـرج، وأنـت تقتريـن علـى نفسـك، وعلى مـن يحبونـك. لـم يكـن ممكننـا الشـرح لنبيلـة كنت سأبدو كفقيه يجاهد لإقناع ملحد بوجود الله.

أغلقـت الإتصـال وهـي مسـتمرة فـي ثرثرتهـا، ناديـت لطيفـة، اتهمتهـا بالفتنـة، ونقـل الـكلام حرفيـا لنبيلـة، لكنهـا أقسـمت، وأخبرتنـي أنهـا لم تسـمع حـواري مـع أبـي لأني كنـت أحكـم غلق باب حجـرة الاسـتقبال، كمـا أنها لـم تسـتخدم الهاتـف منـذ مغادرة أبـي، صدقتهـا لأن مـا قالته صحيـح، لكـن ظللت أتسـاءل مـن أخبر نبيلة بزيارة أبي؟!

فـي حجرتـي، أخرجـت صـورة أمـي مـن درج بجانـب سـريري، بكيتها وبكيت حالي، ولم أنم تلك الليلة.

فـي موعـد المدرسـة، جهـزت حاجاتـي، ورتبتهـا، وحملـت حقيبتي.

اتخـذت طريقـي، لكنـي انحرفـت لاتجـاه آخر، غيـر الجهـة التي توصل للمدرسة.

الإتجـاه الشـرقي للمدينـة، زرتـه آخـر مرة مـع أمـي وأبـي عندما كنا أسـرة واحـدة. كانت بنايـة في مهدهـا مازالـت، تحيطهـا الأرض الزراعيـة مـن ثـلاث اتجاهـات، تعثـر صاحبهـا؛ فعرضهـا للبيـع، أرادت أمـي شـرائها، استشـارت أبـي، فلـم يشـجعها علـى الشـراء،

لكنها أحست أن للمكان مستقبل، فاشترت البناية غير المكتملة، طلبت من أبي الإشراف على تكملتها، فهو مهندس عل كل حال، لكنه بعد موافقته، والتزامة بالعمل، تقاعس، واضطرت أمي للجوء لآخرين، حتى أتمتت بناء طابقين، ثم انشغلت عن تكملتها.

غير الزمن ملامح المكان، وبدله، اختفت كل المساحات التي كانت خضراء، أكلتها المدينة التي تمددت، قطعت بيديها التي استطالت كل الحقول، وهناك عمران بشري في بعض الأبراج، وبعضها الآخر مغلق تماما خالٍ من الأنفاس. مبان في طور النضوج، وأخرى تحاول اللحاق بها، وأخرى أعمدة الحديد مغروسة بها، وأخرى تنافس الأشجار السامقة.

بينهم البناية القديمة، التي كانت ملكا لأمي قبل أن تؤول لي.

قزمة، ضئيلة وسط جيرانها الشاهقات.

رجعت إلى طريق الموصل للمدرسة، وبرأسي فكرة.

ابتعدت كثيرا بفكرتي، حتى اختيار كان ينظر دون أن ينطق معي بحرفٍ واحد.

رجعت البيت، نظرت لي لطيفة، لا أعلم لمَ مازل بداخلي ما يستريب منها رغم تصديقي على براءتها أمس! حيرتي لم تجعل لي إلاها أشك به.

اتصلت بأبي، حادثته بشكل رسمي، على إثر أحداث الأمس، وطلبت منه الحضور، ولم أوضح.

جاءني متأخرا، أنشأ يزيل آثار الخلاف الذي نشب، وكأنه يحاول إزالة غبار متراكم منذ سنوات على حوائط متهالكة، أو بقايا حريق حطم بيتا فلم يعد يرجى منه إصلاح.

كان يعتقد أني غيرت وجهة نظري في مشكلته بعد التمهل في التفكير.

فتحت طريقا للموضوع مباشرة:

- أتتذكر البيت الغير مكتمل البناء، الذي في المنطقة الشرقية

سكت قليلا، نظر لأعلى، بدا يفكر:

- أظنني أتذكره.

- لقد زرته هذا الصباح، ووجدت هذه الناحية تغيرت تماما، والبناء المبتور، يحيطه من كل الجوانب، أبراج مكتملة، وأخرى في طريقها للإكتمال.

بدا عليه الاندهاش، والتعجب، لكنه لم ينبس؛ ليتركني أكمل.

- لو تم تأجيره، وهو ذا مساحة كبيرة، لأي غرض، سواء للسكن، أو للتخزين، سوف يدر مبلغا لابأس به.

ما رأيك؟

غمغم، ثم قال: كعقل أمك بالضبط، لاتشبهيها شكلا فقط، لكن رأيا، وفكرا وتصرفا.

قلت: لكن سأتصل بالمحامي.... قاطعني أبي: لا داعي ياسمين حبيبتي، تأكدي، لن أفعل ما لا يوافق هواك أبدا.

تعاطفت معه في الحقيقة، وتدفق حبه المتجمد في أوصالي ناحيته، لكني عاودت فأعزيت حنانه؛ لإعجابه بأفكاري، أو لطمعه في مبلغ الإيجار.

اتجه أبي للباب؛ ليغادر، لكني استوقفته: هل مازلت على علاقة بخالي وزوجته؟

استدار متعجبا:

- نعم أحيانا يحدثني للإطمئنان، وأحيانا، تحادث نبيلة سلوى.

- إذن هما صديقتان!

- إحتمال.

اكتملت الدائرة في ذهني، ووجدت الحلقة المفقودة، نبيلة تسللت لسلوى، إذاً سلوى تعرف بزيارة أبي، وماحدث فيها، كان أبي لايحكِ لأمي شيئا بتفاصيله، أوربما أمي هي التي لم

تكـن تهتـم بالتفاصيـل، وربمـا سـلوى هـي مـن حرضـت أبـي؛ لأفيـده بفلوسـي، أو يرفـع يـده عـن مؤنتـي علـى أقـل تقديـر، ونبيلة تعـرف الأخبـار، وتبغي مـن الكعكـة جـزءا، علـى اعتبـار أن الكعكة بلا صاحب، أو أن صاحبها أبله صغير، غير واعٍ.

تحدثـت مـع اختيـار فيمـا أتحـدث معـه كل يـوم، ولكنـي اليـوم أخبرتـه أنـي أمتلـك بيتـا مـن طابقيـن، ويفكـر أبـي فـي تأجيـره؛ وكعادتـه سـمع كأنـه لـم يسـمع، وهـذه صفتـه الأحلـى، فأنـا لـم أصـادف مثلـه حتـى ذلـك الوقـت، نسـبة الفضـول لديـه صفـرا عكس لطيفة، ونبيلة، وسلوى، والجيران.

بعـد أيـامٍ ثـلاث، كانـت فيهـا نبيلـة تتصـل بـي؛ للتلصـص علـى أخبـاري، عـدت مـن المدرسـة وجدتها، تقـف مـع لطيفـة بالمطبخ، وبعد السلام الحار منها قالت:

لـو تريديـن الـرأي الصائـب، اعرضي ذلـك البيـت البعيـد، الذي لا فائـدة منـه للبيع بـدلا مـن تأجيره، لـن يرغـب بـه أحـد؛ فالمنطقة مكظوظة بالشقق الفاخرة.

- لكني لم أطلب الرأي الصائب، ولا أنا أحب النصائح.

أكملت بنفس الوقاحة، وكأني لم أقل شيئا...

- إن خالـك لديـه مشـروع رائـع، وأرباحـه مضمونـة، ونسـبة المكسب به مائة بالمائة.

سكت، وسكتت، وهي تنظر لي بطرف لحظها، تشبه أفكارها الماء الفاسد، لا يستسيغه إلا من تعود عليه.

سألتها عن ابنها أشرف، كنوع من تغيير الموضوع، فإذا بها منفرجة الأسارير، وتخبر أنها ستأتي به ليراني وأراه؛ فمنذ فترة لا نتزاور.

أخبرني اختيار، بتلقائيته النادرة، أن أبيه له صديق، يبحث عن بيت بمواصفات البيت المعروض للإيجار.

ألقى خبره كأنه يتحدث عن أمر عادي، ولا يعلم أنه يحل إحدى مشكلاتي العويصة.

أخبرته التفاصيل، والمبلغ المطلوب، والقابل للتخفيض قليلا، ثم كتبت رقم هاتفي المنزلي ليحدثني فيما يستجد. وكانت أول مرة أمنح أحدا، رقم هاتفي.

حين اتصل اختيار، ردت عليه لطيفة، وبدت منزعجة؛ لأن شابا يتصل ليحادثني.

حادثته، وكانت لا تزال متوترة، أخبرني أن صديق أبيه، عاين البيت من الخارج، ويريده، ويوافق على كل شيء، أخبرت أبي، ليقابله، ويكتب العقد، وسط دهشته المبالغ فيها، متسائلا! كيف عثرت على الرجل، وهل لديك معارف، وبهذه السرعة حدث لك ما رغبت؟

لـم أرد عليـه، رغـم أن إطرائـه أطربنـي، لكنها فـي النهايـة صدفة والفضل فيها لاختيار.

لـم أنـسَ أن أبلـغ أبـي أن المسـتأجر، سيسـلم المبلـغ لوالـد اختيـار، ثـم يوصلـه اختيـار لـي، وقلـت لأبـي بلـومٍ يشـوبه قسـوة: وبهـذا تسـتطع رفع يـدك عـن كفالتـي التـي تثقـل كاهلـك، وتتركني أدبر أحوال معيشتي، كما يتراءى لي.

لأول مـرة، يعجبنـي تصـرف القـدر، دائمـا كنـت لا أراه منصفـا معي، ورغم طاعتي له، إلا أني لم أكن ممتنة أبدا.

وضـع اختيـار بيـدي نقـودا كثيـرة، وأخبرنـي أن ذلك ثمـن تأجير الشهر الأول.

هـل مـا يحـدث لا يثيـر اختيـار؟! هـل لايسـأل نفسـه عـن تلـك الفتـاة الغريبـة، التـي تبحـث عـن مسـتأجر لبيـت تملكـه، ثـم يحـرر أبوها عقدة، ثم تتسلم هي المال؟

لمـاذا كل العالـم ليـس مثـل اختيار؟ لمـاذا لطيفـة لا تنفك تسـأل وتسـأل، ولماذا سـلوى ونبيلـة متلصصتـان؟ لمـاذا الجيران يسـألون لطيفـة عـن أحوالـي؟ ويسـتوقفونني؛ للتطفل، وأنـا لا أعرفهم ولا أسـأل عنهـم، وهـل الإطمئنـان لا يكـون إلا بطـرح الأسـئلة؟ والإلحاح في طلـب الإجابـة عنهـا. الأسـئلة التـي كنـت أراهـا جنازيـر مربوطـة بعنقـي، يجذبوني مـن طرفهـا وقتمـا شـاءوا، أو تفضلـوا بإرخائها إن فترت رغبتهم في المعرفة.

اعتقـدت قبـل تسـلم النقـود، أنـي سـوف أشـتري ملابـس، وأدوات تجميل، وأحذية، وعطور، واكسسوارت.

لكنـي عندمـا خرجـت مـن المدرسـة، تمشـيت فـي الشـارع التجـاري الرئيـس بالمدينـة، وشـاهدت بغـرض التسـوق، لفـت نظـري متجـرا صغيـرا يبيـع أغطيـة للـرأس، تذكـرت نصائـح والـدة اختيار حين أثنت على جمالي، وأنه يجب عليَّ ارتداء الحجاب.

أضحكتنـي الذكـرى، وأنا مسـتمرة فـي خوضـي للشـارع الطويل، أعاين بضائعه، ولا أشتري شيئا.

شـعرت بانتعـاش والنقـود داخـل حقيبتـي الصغيـرة، وسـعادة بقدرتـي علـى شـراء مـا أحـب. نغـص علـيَّ شـعوري فكرتـي المسـلطة علـى عقلـي، أنـي سـعيدة بمـوت أمـي؛ فتهتـز جوارحـي، وأبحـث فـي جوانـب الطرقـات عـن متسـولين أمنحهم بلا حسـاب؛ ليتوقف شعوري بالذنب.

عـدت بعـد سـاعتين، وأنـا أحمـل صندوقـا ورقيـا مكتـظ بكتب، وكيس يحتوي وشاحا.

رمقتنـي لطيفـة ممتعضـة، ولـوت شـفتيها اعتراضـا علـى مشترواتي.

- كل هـذه كتـب! لمـاذا؟ إن بداخـل هـذه الحجـرة، التـي تحظريـن علـي دخولهـا، الكثيـر مـن الكتـب... إنـه لشـيء يدعـو

للإكتئاب، أخاف عليك من التواجد فيها منفردة، ربما يصيبك أذى.

- الأذى هو مصاحبتك أيتها اللطيفة (قلتها بداخلي)

استدرت لها بوجهي، حيث كان الحمل ثقيل، من الشهر الحالي، وراتبك سوف أدفعه بدلا من أبي، وهناك شيء واحد أمرك به، وأطلبه منك، وحاولي أن تنفذيه من أجلي، ومن أجل ضمان بقائك هنا، أعلم أنه صعب عليك، لكن حاولي، ربما تستطيعي.

- ماهو حبيبتي، أقوم بأي شئ من أجلك.

- ألا تتدخلي فيما لا يعنيك.

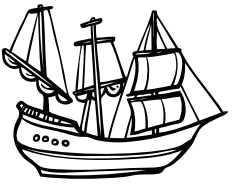

(٩)

الرغبـــات

تتغيـر الدنيـا، ولا أتغيـر. كمـا أنـا أسـيرة للماضـي، أحيـاه بتفاصيلـه مـرات ومـرات. كنت أشـعر أنـي مريضـة، بداخلـي عضو يضخـم التفاصيـل وكنـت أخشـى الانفجـار، وأتوقعـه، كنـت أتمنى طبيبا يستطيع استئصال هذا العضو.

بمـرآة صغيـرة فـي حجـرة المكتبـة، رأيـت وجهـي بعـد أن طرحت عليه الغطاء الذي اشتريته.

لم أستطع الجزم أي الحالين أفضل.

شـهقت لطيفـة: مبـروك، خيـرا فعلـت، أنـت كبيـرة بمـا يكفـي لتتحجبي كالبنات.

صفـة أخـرى سـيئة فـي لطيفة..اهتمامهـا البالـغ بالمظاهـر، وقياس الناس على أساسها.

لـم يندهـش إختيـار، وهـو يـرى الفتيـات يتحلقـن حولـي، وتعليقاتهـم علـى الحـدث، قالـت إحداهـن: لـم أتوقـع أن ترتديـه أبـدا، وأخـرى: ولا أنـا، وأخـرى: هكـذا أفضـل، وأخـرى: بهـذا يكـون الفصـل كلـه محجبـات ماعـدا چاكليـن، فأشـارت چاكي من بعيد بيدها وهي تبتسم.

اتجهـت لإختيـار بعـد أن انفـض الجمـع، انتظـرت تعليـق لـه، لكنه لم يفعل.

- هل لك أن تخبر أمك أني ارتديت حجابا؟

- سأفعل.

ثم نظر إليَّ نظرة مطولة، لم أستطع فهم معناها، فسألته

- هل تعجبك فكرة الحجاب؟

- يعجبني أن يفعل الإنسان ما يراه مناسبا له.

هل اختيار غامض أم يتصف بالبرود؟

(هكذا تساءلت بيني ونفسي)

لـم أكـن أعلـم أ منيـات إختيـار لمسـتقبله، لم يكـن يحكـي، ولم أكن أسأل.

اعتقـدت أنـه يتمنـى أن يلتحـق بالهندسـة؛ بسـبب حبـه النـادر للرياضيات، وقدرته الفائقة على حل طلاسمها.

آخر يوم في امتحانات نهاية العام، كانت بدايته تنبئ أنه سيكون يوما عاديا كسابقيه

داهمني ألم بالبطن خفيف. اندمجت في حل الأسئلة، ونسيت الألم، إلا أنه عاودني، اعتقدته مغصا اعتياديا.

لاحظ إختيار انقباضي..

اقترب، وسرنا في نفس طريقنا المعتاد، ألقينا التحية على عم وصفي، الذي بات يعرفنا جيدا، ويفضلنا، ويقدم لنا أفضل وجباته.

– أظنني سأشعر بالحنين لهذا المكان، وللمدرسة، والطريق الذي كنت أقطعه يوميا.

لم أفكر قبل ذلك في أني سأشتاق لكل هذا.

ربما كان شعور مؤقت، ينتابني لأني في مرحلة انتقالية.

كان إختيار مثبتا نظره على حركات يدي أثناء شرح حالتي

لكنه كالعادة لا ينطق، ولا يشارك، لا يسأل، أو يطلب تفسير.

لكنه فجأة تكلم...

– ما نيتك في القادم ياسمين؟ ما التخصص الذي ترغبين في دراسته؟

لم أصدق، أنه يهتم بشيء، ويسأل عنه، ولأول مرة أسعد بسؤال أحدهم لي؛ ولأول مرة لا أعده تطفلا.

رددت سؤاله بسؤال: كيف تراني يا إختيار؟

- أراكِ طبيبة.

- ولم؟

- لأنك فضلتِ دراسة العلوم، وتتفوقي دائما فيها، كما أن الفتيات عموما يفضلن الدراسة، والعمل في وظائف مضمونة، قريبة من بيوتهن، ولا يفضلن الحياة الشاقة، بعيدا عن مدنهن، ومنازلهن، وعائلاتهن. وهذا لايتوفر إلا في وظيفتي المعلمة والطبيبة.

- تفسير منطقي يا إختيار، كعادتك دائما في أفكارك. لكن بعيد كل البعد عما أريد، وأرغب.

نظر تجاهي بعمق، كأن يريد كشف ما بداخلي، لكني لم أشق عليه، وأنشأت أحكي له قصة حياتي كاملة، دون خجل، ودون أن أترك أحداث مغطاه...

- لم أحكِ أبدا لأحد عن حياتي. هناك العديد بالطبع يعلمها، أو يعرف بعضها، لكن مشاعري، ومعاناتي لم أطلع عليها أحدا من قبل.

أخبرته بتخلي أبي عن أمي، ثم عني، ثم نسيانه لي.

حكيت له كيف عشت حياتي الأولي بنصف عائلة، في البداية مع أبي فقط، ثم بعدها مع أمي فقط، ثم بلاهما الإثنين،

ورغبة أبي التي فشل في تحقيقها حتى الآن وهي إنجاب الذكور. ثم إعلانه التخلي التام عن تحمل مسؤوليتي على اعتبار أن لديه ابنتين فقط.

وطلبه مساعدتي، وقلبه الحقائق، عندما اتهمني، بالجحود؛ لرفضي دعمه وعدم اقتناعي.

أخبرته عن لطيفة، نبيلة وخالي وابنه، وسلوى وبناتها اللاتي لا أتذكر ملامحهن.

– لذلك كله يا إختيار، أنا أفضل البعد، دراسة ثم بعدها العمل، أريد التنقل والترحال إلى مكان قصي، أهرب عن كل ما أتعبني، وأرق قلبي، وزعزع استقراري، وأنهك نفسي.

أريد أن أحيا وحيدة جدا. ربما أعوض فترة تعاستي.

– لم أتوقع كل هذا القدر من البؤس داخلك.

لماذا لم تتخذي صديقة تعوضك عما فقدت من علاقات؟

– لا أحب أن يشفق أحدهم علي، ويستصعب حالي، فيقدم المساعدة أو يعرضها، لا أحب المظهر الضعيف، ولا أسعد إن احتجت لأحد، ولا أرغب في أن أصبح مثار لعطف الناس، وأن تُعرض أسرار حياتي ويخوض فيها الجميع، والكل يمد يده فيها بدافع الحب والصداقة، الخوف.

– لكنك حكيتِ لي...

– ليت الجميع مثلك لا يتطفلون ولا يهتمون بما لا يعنيهم ويفيدهم. كثيرا ما تمنيت أن تكون فتاة مثلي، أو أكون أنا ولدا مثلك؛ لتسهل صداقتنا، ويزداد اقترابنا.

– بالنسبة لي لن أكون بنتا أبدا، ولا أصلح أو أرغب أن أكون فتاة.

– لا تغضب، أنا التي سأكون رجلا.

– جائز جدا....

انطلقنا، في حوارات أخرى مختلفة، على الأرجح كانت غير مهمة، انتظرت معه سائقه، أعرب عن رغبته في شراء الهاتف الذي بدأ ينتشر حديثا في أيدي الكثيرين، قال أن أبيه وعده إن حصل على مجموع درجات عال سوف يهديه جوالا، وحاسب آلي جديد.

كنت أسمعه، وآلام بطني تزداد، والوجع ينتشر، بين أرجاء أحشائي، سألني إختيار: هل تعاني شيئا

– مجرد آلام على الأرجح بسبب القولون.

– لكن هناك شحوبا ظاهرا على ملامحكِ

– نوبة وستزول.

لم ينحسر الألم ، بل لم أقدر على السيطرة عليه، وجدتني أنثني، أتأوه وأصرخ صرخات مكتومة.

أصاب إختيار ذعر، وامتقع لونه هو الآخر: مستحيل يكون هذا طبيعيا.

سأبحث عن هاتف قريب لأتصل بأبيك.

لم أستطع الرد، وقد استسلمت تماما للآلام التي كانت حيوانات مفترسة تتسابق في نهش كل خلية من خلاياي.

في طريقه للبحث عن هاتف، وجد سيارته قادمة من بعيد، غير رأيه: حاولي الجلوس هنا بالسيارة، ثم نذهب لمستشفى.

نزل السائق، وسندني معه، وشعرت ببعض راحة، ثم انقض الألم مرة أخرى بشكل أكثر وحشية.

دخل ثلاثتنا المستشفى، تم الكشف المبدئي على حالتي؛ فتبين أنها آلام الزائدة، ونصح الطبيب بشكل آمر، بضرورة إجراء جراحة.

تركني إختيار بحجرة التجهيز، ولم أكن متوترة، إلا قليلا، كنت أريد التخلص من التعب، وخفت من تحذير الطبيب من الإنفجار، والتسمم.

أعطيته رقم هاتف أبي المنزلي، ولم أكن متأكدة من أنه وصل البيت بعد أم مازال قيد وقت العمل.

انتظرت مايقرب من الساعة، حتى وجدت أبي، يظهر لي برفقة إختيار والسائق، كان أبي منزعجا، مذهولا، يبدو متأثرا مما رأى.

أفقت على يد الطبيب، يتأكد من انتباهي بعد زوال التخدير.

لم أجد إختيار، أو سائقه.

احتضن أبي وجهي وقبلني. لم يكن غيره معي بالحجرة. أدركت كم لوجوده معنى، ماذا لو كان كأمي مفقود، وجود أب أفضل من عدم وجود شخص يحب ويعتني، وعلى الأقل وجدت من يحزن من أجلي، ويجلس بجانبي، تهمه صحتي، التمست له أعذار عن سابقات نكرانه لي، وتناءيه.

لا أعلم هل كان ضعف المرض، وتشويش آلام الجرح المبرحة على العقل.

سألته..

- أين إختيار؟

- كان هنا حتى خرج الطبيب، وأخبرنا أنك بخير. ثم لم ألمحه، ربما أرهقته أجواء المستشفى فقضى واجبه وانصرف لحاله.

بعد ساعتين، وجدت طرقا على الباب لقد كان إختيار، ووالديه.

اندهش أبي من عودة الفتي، وخرج أبي مع إختيار، وأبيه بعد الإطمئنان على صحتي سريعا، وتركوني مع ضحى، أخفت وجهي في صدرها، وربتت برقة على ظهري، وأخذت تمسح جسدي بين يديها وتتمتم.

كم كانت امرأة دافئة، قد أزالت نصف ألمي دون مسكن.

دخلت فجأة نبيلة، وزوجها، وابنها.

ظهر غيظ على وجه نبيلة، عندما وجدتني بين زراعي ضحى.

انتزعتني منها فأعادت آلامي وعاد احتياجي لمسكن.

ثم أخذت تشرح...

- رغم أنه اليوم الآخير لإمتحانات أشرف، وكان مرهق جدا لانه يريد كلية من القمة، إلا أنه صمم على زيارة ياسمين فور معرفته، بإجرائها عملية؛ فهو يحبها جدا، ودائم الحديث عن مستقبلهما معا.

لم أكن في حالة تسعفني في الرد عليها كما تعودتني، ربما شجعها هذا على الثرثرة.

أخبرتني ضحى أنها ستبيت الليلة معي، أصر أبي على رفض ذلك وأنه سيقوم بالمبيت.

وصباح اليوم التالي كان اختيار وعائلته أول الزائرين، وفاض الغيظ مرة أخرى من عيون نبيلة عندما حضرت متأخرة عنهم وأخذت تلفق أعذار.

عشية ذلك اليوم، كنت في البيت على فراشي تعدل لي ثيابي ضحى ونبيلة تثرثر.

كنا قد انتقلنا بسيارة والد اختيار، وحمل سائقه للبيت أكياس، وعلب وأواني، كزيارة سيدة ريفية كريمة ثرية، كانت طعاما مطهوا، وآخر غير مطبوخ، وطيور منزلية مختلفة معدة للطهي، خضروات وفاكهة، علب حلوى شرقية.

حازت الهدايا المتنوعة على دهشة الجميع، وكاد حنق نبيلة يفتك بثباتها، وابتسماتها التي تصدرها للحضور طول الوقت؛ لتبرهن أنها سيدة مبجلة.

وأنا بطريقي للحمام رأيت الصديقتين متجاورتين، اقتربت؛ لأعرف أي لحمٍ تنهشاه، سمعتها تنفث عن غضبها لصديقتها لطيفة:

من أين لها أن تعرف هؤلاء، وما يدرينا إن كانوا طامعين فيها ربما هم من يحرضونها على عدم مساعدة خالها، وأبيها. وجائز جدا كانوا وراء فكرة تأجيرها للبيت بدلا من بيعه، وحل مشاكل زوجي الغير منتهية. أليس المستأجر من طرفهم، إذن ما أستنتجه هو عين الصواب.

تجيب لطيفة بهز رقبتها، ورأسها في تأثر بالغ بما تسمع، ثم تقول عندك حق وربي ما تقولينه هو الصح المضبوط.

صممت ضحى على المبيت معي في تلك الليلة، وسافر زوجها وابنها، وعرضت نبيلة المبيت عرضا باهتا، ثم أخذت زوجها وابنها ومضت، ظل أبي حتى وقتا متأخرا ليلا، ثم تركنا وغادر.

نمت ليلة مريحة في حضن ضحى، حلمت فيها بأمي تشير لي من بعيد دون كلام، وتركتني ورحلت ووجدت نفسي وحدي في أرض شاسعة.

استيقظت على صوت ضحى تتكلم مع لطيفة، لكني لم أفسر الموضوع ولا الكلمات. وجدت بعدها ضحى قد تغيرت ملامحها،وتكثف من احتوائي، والعطف علي، ومازالت ملامحها يشوبها عصبية.

تُرى ماذا قالت لها تلك اللطيفة؟ أخشى أن تكون قد أحرجتني.

حضرت السيدة التي تخدم ضحى بقريتهم، التي تمنيت أن تحل محل لطيفة سيدة مثلها، سلمت في ود، دلفت للمطبخ، وظللت أنا وضحى طوال يوم كامل مع بعضنا البعض ترعاني.

رغم أن وجودها كان مفترضا يعوضني عن وجود أمي معي في ظرفٍ كهذا، إلا أن تواجدها حرك موجات حنين جارفة داخل أعماق قلبي نحو أمي، أيقظ اشتياقي واحتياجي لها، والذي كنت أخدره، وأتناساه بجفاء من حولي.

حضر أبي بعد موعد عمله، أو قبله قليلا، انفردت به ضحى في مكان لايسمعهما به أحد، قالت له عن شيء ما لم أتبينه.

ثم رحلت وخادمتها.

ظل أبي معي بقية اليوم، غادر هو الآخر، وأمسيت وحدي مع لطيفة، وبقية آلام.

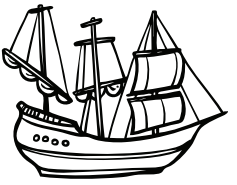

.....

(10)

حكايـــــات

طعـام سـيء مضطـرة أن آكلـه، مـاء آسـن مفتـرض أن أتطهـر به، لص هـو كل الأمـان. إنهـا لطيفة سـيفي ضـد الوحـدة أمـام الجميع، وأملي الحصول على سيف أقتل به احتياجي لها.

اقتربـت منـي ليـلا، وأخـذت توجـه فحيحهـا إلـى أذنـي عـن إختيار ووالديه:

– أخبرتنـي بدريـة خادمتهـم، أن ضحى ظلـت بعد زواجها عشـر سـنوات كاملـة تنجـب، ثـم يمـوت أطفالهـا مباشـرةً فـي مهدهـم، ولـم تفلـح معهـا علاجـات الأطبـاء، فقـرر أهـل الـزوج طلاقهـا وتزويـج ابنهـم غيرهـا. عندمـا رفـض، حرمـوه مـن الميـراث، وطـردوه. فـي المـكان الـذي اسـقرا فيـه كان يسـكن شـيخ جليـل أعطـى وصفـة للسـيدة، واسـتمرت عليهـا لا تحيـد شـهورا طويلـة، حتـى حملـت بابنها الـذي منحتـه إسـم الشـيخ؛ لذلـك سـمي الولد بهذا الإسم العجيب.

لو كنت مكان الزوج لتزوجت أخرى، ونفذت رغبة الأهل، وفزت بالميراث، والأولاد.

سمعت الكلام، وفكرت في نفسي، عندما تنقل هذه البشعة أسرار حياتي، وأهلي، لتكن مضغة في أفواه الناس.

إنها استباحت السر، وأطلقت للسانها حريته؛ لينهش خصوصيات الناس. لكن هل الذنب عليها وحدها، أم تشاركها فيه بدرية؟ هل هناك فرق بين من يكشف عن عورات الناس بحسن نية، ومن يفعلها مع سبق الإصرار؟

هاتفني إختيار؛ معلنا أن نتيجة الإمتحان اليوم، ارتديت ملابسي، وهرعت للمدرسة، وجدت أباء وأمهات، لم أرد إزعاج أبي بطلب حصوله على درجاتي، أردت أن أعرفها أولا. لحقني إختيار، ووقفنا طويلا، دون الشعور بتعب ننتظر نتيجة عام كامل، وتحديد مصير حتى تلك اللحظة لم نكن نعلمه.

اعتدل أحد معلمي المدرسة، تناول مكبر صوت، أخذ يتلو الإسم تعقبه درجته، شعور الإنتظار قاس.

علم إختيار مجموع درجاته أولا بحكم الترتيب الأبجدي، وجلست هناك على أحد الأرصفة العالية، وتداخل إختيار بين الجموع؛ ليتسمع جيدا التفاصيل الخاصة بي.

- ماذا تنوين بعد حصولك على ذلك المجموع الذي يؤهلك لكل الكليات.

– انتويت دراسة الآثار، والسياحة

لم يتعجب، وكأنه كان يعلم الرغبة، وينتظرها.

– دعك مني، مارغبتك أنت، ومجموع درجاتك يؤهلك للهندسة كرغبة والدك تماما.

– أفكر جديا في دراسة الآثار والسياحة واللغات، أظن المستقبل لمثل هذه الدراسات.

كان رأيه غريبا جدا بالنسبة لي:

– أنت يا إختيار يا من تتفوق في الرياضيات بشكل مذهل، ولولا أنك خسرت درجات بمادة الكمياء لكنت من الآوائل على كافة الجمهورية!

وماذا عن رغبة والدك، في أن تصير مهندسا، وتتوسع معه في تجارته.

– هل يعقل أن يدرس شخص لأجل آخر، ويعمل بمجاله، ويعيش حياته؟

أنتِ ترضين بذلك؟

– قد لا أرضى أنا، لكن بسبب ظروفي العائلية المضطربة.

أما أنت، فالأجدر بك، والأنفع لك هو وجودك الدائم بالقرب من أهلك.

– انتبهي ياسمين، أنتِ تتدخلين في شؤوني الخاصة، وتقتحمين خصوصيتي، وتحاولين إثنائي عن ما أقتنع به، وهذا ما ترفضيه تماما.

– أنا فقط أنصحك كأختك، ولأننا صديقين مقربين. وأحب أمك وأجلها، وأقدر لها وقوفها بجانبي.

– لا عليك عزيزتي، فأنا قادر على اتخاذ قراري، قادر على إقناعهم به. وهم في النهاية لا يبحثون سوى عن مصلحتي وحسب.

– تمنياتي لك بالتوفيق والسداد يا إختيار. لقد اعتقدت أني سأودعك، لاختلاف نوعية دراستنا، لكننا سنكمل مشوارنا الدراسي معا، وهذا من أسباب سعادتي.

رجعت البيت بصحبة إختيار، والسائق في سيارته. أنشغل بالتفكير فيما قال، يسألني عقلي عن سبب تغيير إتجاه هذا الفتى،

منذ عرفته وهو يحب الرياضيات، ويحب دراستها، وأمه كانت تأمل أن يصبح مهندسا، وأبيه كذلك، ومؤكد تتمنى أن يظل بالقرب منها، ويشتغل مع أبيه ويساعده في مشروعه الكبير؛ فهو كما فهمت، يستورد ويتاجر على نطاقٍ واسع في مستلزمات الأرض الزراعية كافة، والمبيدات والأسمدة خاصة، حيث أنه في الأصل مهندسا زراعيا.

ماذا لـوكان الإبـن يريـد تغيير مسـاره الدراسـي مـن أجلـي، ربما عطـف علـى حالـي بعـد أن سـردته لـه بالتفصيـل؟ لكـن هـل يمكن لشخص تغيير حياته بسبب تعاطفه مع صديقه؟!

ربمـا إختيـار ضعيـف لدرجـة أنـه تأثـر بأحلامـي، وحديثـي عـن مستقبلي؛ فغير حلمه؟!

ربمـا لـم تكـن الهندسـة حلمـه، ربمـا لا يحـب السـير وراء أراء أحد، حتى إن كانوا أهله.

وإذا كانـت ضحـى مـن النـاس الذيـن يلفقـون التهـم لغيرهـم؛ ليرتاحوا واتهمتني بأني تدخلت في انحراف ابنها عن مساره؟

كيف سأواجها، إذا لعنت يوم معرفته ومعرفتي بهم.

قطـع سلسـلة الأسـئلة المنهالـة علـى رأسـي، صـراخ أبـي وأنـا أضع المفتاح بالباب:

– أيـن كنـتِ؟ ألا تعلميـن أن أعصابـي تحتـرق، وأنا أنتظـر بفارغ الصبر، معرفة النتيجة.

لقد نسيت أبي، يا الله، نسيتك يا أبي كما تنساني.

– عـذرا أبـي الطـرق مزدحمـة. الحمـد للـه مجمـوع درجاتـي كبير ستة وتسعون بالمائة.

– مبروك يا سمين، هذا يؤهلك لدراسة الطب بلا شك.

مبروك أيتها الطبيبة المستقبلية ياسمين مراد.

– لكني لن ألتحق بكلية الطب. هدفي شيء آخر.

– وهل هناك هدف أهم من كلية الطب؟

– كل شخص له الحق في دراسة ما يريد.

– وماذا تريدي ؟

– أدرس السياحة والآثار، واللغات، والحاسب

– أنتِ مختلة وربي، لماذا؟ هذه الدراسة؟ وأنت تقدرين على أفضل منها.

– ليس هناك فضل لعلم على علم، كل العلوم مهمة، لن يكون كل العالم أطباء أو مهندسين

– الحوار معك مستحيل أيتها الفتاة الضالة دائما عن الصواب.

ناديت على لطيفة لتحضير الطعام، كنت في الحقيقة سعيدة لأني سأترك البيت البائس، المظلم حتى في وهج النهار، والمدينة الصغيرة التي كحجرة تحاصرني جدرانها، وتطبق على صدري وأبي الذي لا يتذكرني إلا إذا أراد إملاء أمرا على إرادتي، سأحلق بعيدا، سأتحرر ، سأتنقل.

لطيفة على غير عادتها لا ترد.

أخبرني أبي بضيق: طردتها، تعللت أنك لست بحاجة إليها بعد الآن.

- ولماذا؟

- هل كنت تحبينها

- لا طبعا، لكن أحب أن أعرف السبب.

- هكذا نصحتني السيدة ضحى

- ضحى!

قالت أنها سيئة، كاذبة، تحقد عليكِ، أضافت، أنها غير أمينة.

لا أعرف إن كان ما قالته صحيحا، أم مجرد شك في تصرفاتها، لكنها إستحلفتني أن أتخلص منها.

جهزت أنا الطعام، تناولته مع أبي، وأنا أفكر في ما دفع ضحى لتحريض أبي على الزج بلطيفة، مؤكد تكلمت عني بشكل بشع.

- ترى ماذا أخبرتِ عني يا لطيفة؟

أنا أعرفها، تلك السيدة التي تتقرب للناس من خلال نشر أسرار آخرين على صفحة لسانها المريض. ولا استثناء لديها، لقد حدثت كل الناس عني وعن مأساة يتمي وبؤسي، وأضافت بخلي، وعدم إسرافي كما يجب، وأني بريئة الطبع، حادة، صعبة العشرة.

ورغـم أنـي لا أهتـم للنـاس ولا ألتفـت لهـم وأنعـزل داخـل نفسـي بسـهولة، وطـوال الوقـت لا غضاضـة عنـدي فـي ذلـك، إلا أنـي لا أحـب أن يثـار كلامـا ملفقـا عنـي أمـام ضحـى، إن ذلـك يحرجني.

ربمـا سـأحتاج فـي الوقـت التالـي أن أبتعـد عنهـا كليـةً، فمؤكـد سـوف تعتقد أني مـن وسوسـت لإختيـار، ليصحبنـي لدراسـة صادمة مفاجئـة بالنسـبة لهـم. فأنـا فتـاة من وجهـة نظـر الكثيـر ضالـة، تخلى أبوهـا عنهـا، أو استسـاغت هـي العيـش بدونه، لـم تتلـق تربيـة لائقة، لم تحظ بأسرة، نبتة مشوهة غريبة في تربة سيئة.

وربما تؤكد لها نفسها أن كلام لطيفة عني صحيح.

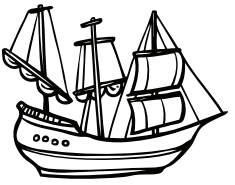

.....

(11)

يمنـــــى

ريشــة تســبح فــي الهــواء، يــرى البعــض حريتهــا، فيحســدها. والحقيقة أنها لا تملك من أمرها شيئا.

شــقة مكونــة مــن حجرتيــن، اســتأجرها أبــي لي؛ لأنــزل بهــا، في أيــام الدراســة، بالقاهــرة. ذهبــت معه مــرة، وســألنا عن مــكان قريب للجامعــة التــي ســألتحق بإحــدى كلياتهــا، ونصحنــا البعــض بهــذا العقــار المكــون مــن ســتة أدوار، تؤجرهــا مالكتهــا فــي الأغلــب لطالبات مغتربات.

تلاحقني الغربة، أو ألاحقها لا أدري.

هل ندمت على تغيير مسار حياتي الذي لم أقبله يوما؟

تركــت الندم لوقــتٍ لاحــق، وتخيلت مســتقبل رحلتي فــي المدينة الكبيــرة، المزدحمــة، البعيــدة، المســتمرة بالجلبة، الضوضــاء. الناس لا تنــام ليل نهــار، كنــت كل يوم أتمشــى حــول الشــارع الذي أســكن

إحدى بيوته، وبعد أن حفظت الطرق الرئيسية، سحبتني قدمي للأزقة الجانبية. كنت أرفع وجهي للطوابق التي تتكون منها البنايات مختلفة الطول، وهي مفتوحة النوافذ في راحة، وهدوء، أحسد جميع قاطنيها على راحة البال.

أصبح بمقدور أي شخص أن يحادثني في أي وقت، بعد اقتنائي هاتف جوال.

أخبرتني نبيلة أن أشرف التحق بكلية الصيدلة على آخر لحظة، وكانوا قد فقدوا الأمل في التحاقه بإحدى الكليات التي تحتل القمة، ثم أعربت عن حزنها البالغ من أجل سوء اختياري، وعدم قدرتي على التفكير المناسب.

اختيار أيضا أصبح يمتلك جوالا، حدثني بواسطته عشرين مرة، كأنه طفل وجد لعبة.

رفضت بشكل قاطع أن أشاركه سيارته التي أقلته للقاهرة

قبل اليوم الدراسي الأول.

كنت أحتاج أن أثبت لنفسي ولهم، أني أعتمد بدونه على ذاتي، لا أحتاجه، ولا مصاحبته.

كنت أبتعد عنه ريثما أتخلص من شعوري بالذنب ناحية والديه.

قابلته أول مرة بالجامعة، كان كأول مرة رأيته بها منذ ثلاث سنوات، ربما نضجت ملامحه قليلا، لكن قامته الطويلة،

ونحافته كانتا كما هما، وحقيبته المدرسية يحملها مازال فوق ظهره، تبدو مضحكة، ساعته الكبيرة مربوطة في معصمه، جبهته العريضة لامعة بسبب الحرارة، والعرق، والذكاء. إنه نفس الطفل الذي قابلته منذ سنوات.

في الحقيقة كنت أنا أيضا بنفس مظهري المدرسي السابق لم أغير منه شيئا.

لكني سرعان ما تغيرت، وتخليت عن الحجاب، بعد أن رأيت معظم الأنيقات لايلتزمن به فوق رؤوسهن، أصبحت فتاة عصرية قاهرية من الطراز الأول، رغم معاناتي الزحام الذي يشعل الشوارع ووسائل المواصلات. كنت دائما أستحضر كتاب (يوميات امرأة عربية في باريس) وأشفق عليها من تخليها عن عاداتها وأهلها، وهدوء بلدها وعاداته، بحثا عن مجهول وغربة، وزحام، كنت دوما ما أتذكرها خصوصا وأنا تحت الأرض أنتظر عربة المترو، أشفق عليها، وأتمنى أن أفعل ما فعلته منذ زمن، أتمنى السفر والابتعاد لأقصى بقعة بحثا عن الحرية، وإن كان ثمنها الغربة والوحدة.

سرعان ما تكونت حولي صداقات، لم أتوغل في أيٍ منها، لكني كنت قريبة لأغلبهم.

لم تثرِني الدراسة، في بدايتها، ولم أبذل جهدا للتقرب منها، وسيطر الشعور بالإحباط على نفسي، دفعني للتغيب

فترات طويلة عن المحاضرات، وعن الجميع، حتى اتصالات اختيار تجاهلتها، وحبست نفسي بالبيت وبحجرة واحدة به، أنا وكتبي وحسب.

طرق بابي على غير العادة طارق، فتحت بوجل، فوجدتها الطالبة التي تستأجر شقة مشتركة مع أخريات في الطابق الأخير.

فتاة ريفية، لم تتأثر قط بوجودها في المدينة العريقة، ملامحها بسيطة، مريحة، معتادة، يهيأ لي أني رأيتها هناك في مدرستي الأولى، أو كانت إحدى جاراتي في يوم من الأيام.

سألتني عن أغراض تريد اقتراضها، ثم تعيدها، وكنت أمتلكها، دعوتها للإنتظار بالداخل؛ حتى أجهز لها ما طلبت، لفت انتباهي، مظهرها الرقيق جدا، وطراز ملابسها الفقير.

جلست مباشرة، تكلمت بلا استئذان، وجدتها تثرثر كلطيفة، بيد أن ثرثرتها حلوة، خفيفة الظل، تنتقل من موضوع لآخر برشاقة

لا تحكي أخبار أحد، لم تخبرني حتى بأسماء شريكاتها بالمسكن

– أراك منذ فترة، وانت ذاهبة للجامعة. لم أستطع تبين نوع دراستك؛ لأنك لا تحملين أدوات. قابلتك مرة على السلم في أول دور، حاولت جذب انتباهك بابتسامة، لكنك لم تنتبهي في الغالب ولم تعبأي بتحيتي التي ألقيها عليك كلما رأيتك.

انتابني خجل، توقعت أن تصفني بالصلف؛ فبالغت في لطفي معها، دعوتها لتناول القهوة بالشرفة معي، لكنها طلبت شايا وأصرت عليه، وأخبرتني أنه في بلدتها لا يشرب القهوة في الغالب سوى الرجال.

أكملت حديثها الذي بدد كثير من تبلد أصاب كياني بالفترة الأخيرة، وأذاب طبقة ثلجية غلفت أيامي.

– من بلدة صغيرة في الصعيد، لو أخبرتك باسمها لن تعرفيها، جاهدت لأتعلم، فأنا بنت وحيدة ولي خمسة إخوة، لم يفلح أحدهم في التعليم فحصل أحسنهم على شهادة متوسطة.

لذلك واجهت حروبا شرسة كل عام أنجح فيه، كنت متفوقة رغم عدم اهتمام من حولي بهذا، وبلا تشجيع، وحوافز. سمعت مرة أبي يعترف لأمي أنه كان يتمنى عزيمتي وقوة تحصيلي، وذكائي لأحد أولاده الذكور.

حتى حصلت على مجموع درجات يؤهلني لدراسة الطب؛ فطلبت إكمال تعليمي، ورفضوا جميعا، وأمام إصراري وتدخل الأقارب، وافق أبي بشرط عدم تحميله أعباء تفوق قدراته المادية؛ فقررت أن أعافر، وأعيش على الكفاف حتى أصل إلى مبتغاي.

أعجبني كل شيء في يمنى، عفويتها، طيبتها، ظلها الخفيف، قوة شخصيتها، إصرارها؛ فعرضت عليها عرضا.

– مارأيك أن تنقلي معيشتك معي بشقتي، فأنا وحدى، وأدفع الإيجار في كل الأحوال كاملا، ولن يضيرني أن نكون اثنتين.

عجبت من نفسي! كيف لي بهذا الطلب منها، ولا أعرفها مطلقا؟!

ربما هي أنياب الوحدة؛ التي بحثت عن سلاح لأخفف شراستها، فكان السلاح يمنى.

يحتاج كل منا في وقتٍ ما لشخص لا يعرفه، تكن الحياة معه أفضل.

لم تتوقع عرضي، فرحت، ثم دمعت، ثم أعلنت أنها سوف تفكر فيه، ثم انهال الشكر على لسانها وجرى حتى أغرقتني به.

كانت منشغلة دوما ، محاضرات نظرية، وعملية، فلم أكن أراها كثيرا، لكني لاحظت أنها تقوم بعمل كل شيء مقابل السكن معي مجانا، تطبخ، تنظم البيت، تنظف المفروض تنظيفه

اعترضت، وطلبت مناصفة الأعباء بيننا، لكنها لم تكن تسمح لي بفرصة؛ فأصبحنا نتسابق على أينا تفعل قبل الأخرى.

أبي وزوجته وابنتيه، يعيشان في سلام على الأغلب طالما لم يتصل أبي ويشتكي، لا أعرف هل استسلم لواقعه الذي طالما رفضه، أم كان الزمن كافيا لذلك.

كنت هناك بعيدة عنهم، وأتخيلهم، أبي هانئا مع أسرته، وخالي مستقرا بين زوجته وابنه، ولطيفة مؤكد في مكانٍ ما، وجاراتي مستريحات في بيوتهن.

على عكسي كان اختيار منتظما في دراسته، يسير فيها بخطى سريعة، ناجحة، يتعلم، ويتعلم.

بعد فترة ليست كبيرة استطاع جذب انتباه الزملاء، كعادته يلفت النظر بذكائه، وتفوقه، وحبه للعلم وولعه بالمعرفة.

بات مهما لدى عدد كبير من الطلاب، يساعدهم كعادته في فهم طلاسم المواد الجديدة.

وكنت أنا مازلت أترنح، يدفعني شعوري بالخطأ تارة، والندم تارة، يتجاذبني شعوران يتساويان في شدتهما، الأول الرجوع لمدينتي، ودراسة علوم أحبها، والآخر المكوث بالمدينة الكبيرة التي أتوه فيها، وفي زحامها الذي كنت أجوبه كل يوم ؛علي أنسى فيه احباطاتي.

تعودت دائما مواجهة إخفاقاتي ومتاعبي، وألام نفسي وحدي، دون أن أجد يدا تُمد لتخفيف.

انقضى العام الأول بالجامعة، دون استعداد من جانبي، وكأني فوجئت بنهايته، كانت يمنى في البيت كنحلة، متيقظة، يهيأ لي أنها تستطيع عمل كل شيء في وقتٍ واحد.

واختيار بالجامعة كذلك كان متفانيا في دراسته، حتى أكبر الأساتذة عقله، واستحسنوا مجهوده.

قال لي اختيار في أول أيام الإمتحانات: لولم تنتقلي لقسمٍ آخر، وظللت معي بنفس القسم الذي التحقنا به معا في البداية، لكان بيَن يديك الآن ملخصا وافيا، مفيدا، تعتمدي عليه في الإمتحانات كافة؛ فتحصلي على النجاح بسهولة.

لم أخبره أني هربت من القسم الذي التحقنا به معا، حتى لاتطولني اتهامات أمه بأني أستغله للمرة الثانية.

– الأقسام كلها هنا متشابهة، لا أرى فروقا جوهرية.

هذا لأنك لم تتعمقي بالدراسة كما يجب

ألمح اختيار لإهمالي، وتقاعسي عن واجبي، وإن كان بشكل غير مباشر، لكن ذلك آلمني، ربما لأنها الحقيقة، وسيف الحقيقة موجع دائما.

لم يعلم أحد، ولم أحب أن يعرف أحدا عن معاناتي شيئا، أو عن غربتي واغترابي، ولا عن ندمي ونوبات احباطي واكتئابي.

رفضت العودة لبلدتي كما عاد كل من اغترب عن بلده مرغما بسبب طلب العلم، طائرٌ مهاجرٌ، ضل طريق العودة للوطن.

لم أترك بلدتي مرغمة، لقد اخترت في إحدى لحظاتي الفارقة.

هربت منها، ومن ذكرياتها الخائفة الجاثمة على قلبي لا تمنحه فرصة للتنفس.

وهل الهارب بإرادته يعود!

جددت العقد مع صاحبة العقار الذي أصبح خاليا بعد أن رجع الجميع من نفس الطريق. الكل أراد عودة لحياة طبيعية بعد أن استنفذته الغربة ووحشتها في شوارع، وأشخاص غرباء، مضطر للحياة بينهم، وألفتهم مهما كان الإختلاف.

أما أنا فالأمر بالنسبة لي سيان، هنا غربة كما هناك، منذ أن كنت صغيرة بين والداي، مدرستي الأولى التي كان زملائي فيها غير مفهومين، ومحاولاتي المستميتة للتكيف؛ حتى لاتزيد أعباء أمي، لم أكن أعلم أن بداياتي في ممارسة التكيف ما كانت إلا تدريب على نمط حياة سأحياه دائما، فابتدعت أساليب للتكيف على غربتي بين أبي وأمي، وبين زملاء دراستي في مدينتي الصغيرة، وبين الجيران، وبين أبي وزوجته، ومع لطيفة التي اضطررت على العيش معها كالماء والزيت في إناءٍ مغتربة في بيتي.

جاءتني عشرات الإتصالات من أبي الذي يستهجن تصرفي النزق بعدم قضاء العطلة في بيتي.

ربما كان ذلك بسبب عدم تكلفته عناء السفر، وزيارتي كواجب ملزم له.

وكذلك من نبيلة التي تتودد إليَّ وتلصق اسم ابنها في معظم الجمل دون مناسبة.

واختيار الذي كان دائم الإتصال بي، وإخباري أنه اشترى حاسبا محمولا، وكان يود أن أراه وأتعرف على إمكانياته.

والغريب أنه الوحيد الذي يتصل كثيرا، دون أن يعرب عن قلقه عليَّ، رغم أني عاملته بصلفٍ في الأيام السابقة، إلا أنه اعتبر أني أمر بأزمة، وتخطى الأمر.

كانت عاداتي كما هي، منذ أن لمست عيني نور المدينة الشاهقة.

أنام حتى نصف النهار، أتسكع بين الشوارع، وزاد أني اشتريت آلة تصوير، أسجل بها ما يعجبني، تعرفت على مقاهي عديدة، وظللت أتسمع حكايات الخارجين عن المألوف

وأخاف منهم، فأضيع أية فرصة لتعرفهم عليَّ

سرت بين الأماكن العتيقة، والأثرية، وبين الحديثةِ المتفرنجة، والوسط بينهما، اعتدت شراء الملابس الجديدة، الضيقة، والمكشوفة، واشتريت الكتب من على الأرصفة.

فـي صبـاح أحـد الأيـام أزعجنـي رنيـن رقـم اختيـار، وكنـت أخبرته بمواعيد نومي العجيبة.

عندمـا تهيـأت لتأنيبـه علـى فعلتـه، وجدته يقـول: نحن بالأسـفل هل يمكنك استقبالنا.

قفـزت من فـوق سـريري، لـم أكـن أعـرف هـل أغتسـل، أم أنظم الأشياء، والأغراض الملقاه هنا وهناك.

في حضـن ضحـى مدينـة سـحرية، أتحـول لطفلـة مبهـورة بعالم خيالي بديع.

كان اختيار وراءها يحمل هداياها الجمة.

قبل غلق الباب، كانت صاحبة العقار تراقب الضيوف

وتسـتجوبني بحـذر عـن الأغـراب، قبـل أن أنطـق ردت ضحـى أنـا خالتهـا، وابنـي، وقضمـت الـكلام وألصقـت بـه ضحكـة بـلا مبرر.

غادرت السيدة التي أجدها أول مرة متطفلة.

لاحـظ اختيـار بعـض أدوات لبسـمة بالغرفـة ذات البـاب المفتـوح؛ تعجـب وسـألني، فأخبرتـه أنهـا صديقـة تسـكن الطابـق العلوي وكانت تذاكر عندي ذات مرة.

لم أشأ إخباره أني أستضيفها مجانا، حتى لا أجرحها

– ألن تقول لها مبروك؟!

– صحيح ألف مبروك، أنت حقا غير متوقعة.

تقلب نظري بينهما لا أدري ماذا يعنيان

النتيجة ظهرت، والغريب أنك نجحت بتقدير جيد

– النتيجة!

– ما الغريب في الأمر ياسمين؟

– أتصدق أني لم أفكر فيها، أو حتى أتذكرها.

– غريبة الأطوار أنتِ

توقعت أن تعرفي عنها أولا لقربك من الجامعة.

– وأنت ماذا جنيت؟

ردت ضحى قبله: إبني النابه، الأول على الجميع.

تأكدت فقط ساعتها، أنها ليست مبتئسة من اختيار ابنها، وأنها سعيدة بوجهة نظره تجاه حياته، والأهم أنها لا تحملني ذنب اختياره.

تسربت ضحى دون جلبة إلى المطبخ، وأخذت تنظم وترص، وبعد دقائق، حمل لنا الهواء رائحة طهو طيب.

تأملت المشهد الذي حرمت منه طوال حياتي أم تبعث الحياة بالبيت وتشع الراحة والبهجة حولها، وأخٌ متفاهم يشاركني اهتماماتي.

شـاهدت حاسـوبه الجديـد وأعجبنـي. وعلـى المائـدة اللذيـذة، الدافئـة أخبـرت ضحـى أنهـا حضـرت لعمـل فحـوص طبيـة طلبهـا طبيبهـا فأخبرتهـم أنـي أصبحـت حاذقـة فـي معرفـة العناويـن وتفاصيل الشوارع.

– بالطبـع، فقـد أنفقتـي وقـت الجامعـة فـي التعـرف علـى الشوارع والميادين.

– لكني نجحت في النهاية

– هذا ما يغيظني.

كانـت ضحـى تشـاهد جدالـي مـع ابنهـا فـي سـعادة، ولا تكـف أبدا عن ذكر أمنيتها في امتلاكها ابنة، أو ابنتين.

كان المشـهد مريـح لثلاثتنـا، فـالأم تريـد ابنـة بجانـب ابنهـا، والإبـن يتمنـى أخـت، وأنـا أتمناهمـا معـا أم وأخ. ليت يمنـى كانت معنا.

بحلـول المسـاء طـردت ضحـى اختيـار، وحملتـه أن يجـد مكانا أمنا ليقضي فيه ليلته.

– ولمَ لا ينام هنا معنا بالحجرة المجاورة؟!

– لأنه رجل، أم لا تظنيه كذلك.

– إنه أخي الرجل.

خـرج اختيـار مجبـرا، فلحقتـه بالبـاب ووصفـت لـه مقهـى ليقضـي بـه الليـل قبـل النـوم فـي أحـد الفنـادق المجـاورة، لكنه في الصباح أخبرني أنه لايحب جلسات المقاهي.

سـألتني يمنـى حيـن حلـت مـن بلدتهـا، ومعهـا مأكـولات أمها، ومبلـغ النصـف المسـتحق عليهـا مـن قيمـة إيجـار الشـقة، والتي لم أقـدر علـى إثنائها عـن دفعـه؛ فقـد هـددت أن تعـود للطابـق العلوي المزدحـم، إن أنـا رفضـت. عـن اختيـار فقـد كانـت تـراه كثيـر الإتصـال، فقلـت لهـا الحقيقـة بالضبـط، لكنهـا سـألت سـؤالا لـم أتوقعه:

- هل بينكما قصة حب؟

- لأ طبعا

- ولم الإجابة السريعة، القصيرة، الغاضبة، وكأن الأمر تهمة

- لا أعـرف، لكنـي لـم أتوقـع السـؤال، ولا أحـب الـكلام فـي تلك الموضوعات العقيمة، عديمة الفائدة.

آلمنـي أن أرى طبيبـة المسـتقبل بهـذا المظهـر البائـس؛ فعرضت عليهـا ملابـس مـن تلـك التـي اشـتريتها، لكنهـا رفضـت وهـي تضحك.

- ألا ترينـي محجبـة، فكيـف أغطـي شـعري وزاعـي عـاري، أو قميص يظهر ثنيات جسدي.

تعجبت من إصرارها، وأعجبني، فقد كانت أفضل مني حين خلعت حجابي لأظهر مثل الأخريات.

في اليوم التالي اخترت أكثر الملابس احتشاما، وطرحت حجابا حول رأسي فقط، وأنزلت خصلة من تحته.

لاحظني اختيار، ولم يعلق، لكنه أعرب عن بالغ سعادته أني أصبحت أكثر مواظبة على حضور المحاضرات.

في الحقيقة تقديري المعقول جدا، والذي لم يناسب تحصيلي السابق، لكنه ناسب ذكائي، وأيضا المرتبة التي حققها إختيار كان لهما أثر في تعديل حالتي، تشجعت على طرح عللي النفسية والمضي قدما في اتجاه المستقبل.

هذه السنة استأجر اختيار شقة قريبة من الحي الذي أسكنه، كان غالبا ينتظرني على رأس الشارع الكبير، ونذهب سويا.

في بعض المرات القليلة، صاحبتنا يمنى

ذات صباح، سبقتني يمنى وظللت أنا بالشقة أبحث عن كتاب اختفى سهوا، نزلت هي بسرعة، فاصطدمت بوجود اختيار في مكانه كالمعتاد.

نزلت أنا بعد أن وجدت ضالتي، فوجدتهما يتهامسان.

سار ثلاثتنا، ثم انحرفت يمنى للمنعطف الذي تقبع به قاعة محاضرتها، وتركتنا وراءها بسهولة، وبساطة كعادتها.

حدثني اختيار عن قصتها، وأخبرني بما لم أخبره به من حياتها، وأنها معي تعيش، وتسكن.

لطالما أثارت هذه الفتاة اندهاشي، تتبرع بمنتهى السهولة بحكي تفاصيل حياتها لكل من تراه.

وعندما لفت نظرها، وأردت نصحها، بعدم ضرورة القيام بهذا، وأنها غير مضطرة لأن تكشف أسرارها أمام الناس، فقالت: إن ذلك لا يضيرني، وأن من يتعمد الإختباء من قصته هو خائف منها وسيظل هاربا، وكلما هرب وابتعد يبتعد أكثر، ويظل حياته وماضيه يلاحقه.

أصابتني كلماتها، ورددها عقلي بأُذني مرات ومرات.

بعد مرور السنة الثانية، وفي آخر يوم لامتحاناتها، سألني اختيار إن كنت سأعود معه، لكني رفضت

تعودت الحياة هنا، ولا داعي لاضطراب نظام حياتي، طالما ليس هناك ضرورة.

سألتحق بدراسات حرة، في اللغات، والحاسب، وسأجلب كتبا متخصصة عن السياحة، والتاريخ، ربما تفيد فيما بعد.

هذه المرة عندك حق، ربما ألتحق بكِ قريبا لكن بعد زيارة قصيرة لأهلي.

كان أبي في زيارته لي عقب الإمتحانات مباشرة، على غير عادته كان فرحا، سعيدا مستبشرا وجهه ضاحكة قسماته.

– سلوى حامل مرة أخرى، دعوت الله كثيرا، دون أن ألتجأ للأطباء، ورغم صعوبة حملها كالعادة إلا أنه حدث.

ومؤكد سيحدث ما تمنيت يوما ما.

رأيت أبي مريضا، يشكل خطورة على نفسه، لم أعقب، أو أعلق، حدثته في موضوعات شتى، وكان هو ما يلبث أن يعود للموضوع ذاته.

نسي هذه المرة أن يلح علي بالعودة معه، نسي أشياء كثيرة، من فرط انشغاله بولده المنتظر.

لم أعبأ كثيرا، بت أعتاده، قضى معي ثلاثة أيام، ورحل متعللا بأن هذه هي مدة إجازته التي حصل عليها من عمله، وقفت على باب شقتي أودعه، سمعته يلقي السلام على السيدة صفية صاحبة العقار، والتي كانت بالصدفة خارج شقتها، وترد سلامه بود، وكأن بينهما معرفة سابقة، كما استطعت سماعه، وهو يوصيها بي.

رجع اختيار بسرعة، واستطاع بمعرفته بشبكة المعلومات، معرفة أماكن جيدة لتعليم اللغات، ولأننا نعرف عن الإنجليزية الكثير، لدراستها في مدرستنا هناك، فضلنا دراسة الفرنسية، وبدأنا.

دق على الباب في ساعة غريبة، غير منتظرة بها أحد، ولايزورني أحد، بلا موعد.

- تفضلي سيدتي صفية.

- لا تفضلي أنتِ عندي، لحضور حفلة صغيرة بمناسبة عيد ميلاد حفيدي.

- كل سنة وأنتم بخير.

وقفت أمام خزانة ملابسي، لا أعلم ماذا أرتدي، فلم أُدعَ لحفل من قبل.

ثم أنها قالت حفل عائلي، فلمَ تدعوني له!

ارتديت ملابسي الصباحية العادية، ونظرت للفافة الحجاب، ولففتها حول شعري، ثم ألقيت بها، وأسدلت شعري ورائي.

فتحت لي الباب، كانت هي وامرأة تساعدها في تنظيم الطاولة الفخمة المرصوص عليها مستلزمات عيد الميلاد، وهناك بالقرب من الشرفة الواسعة رجل يقف بجانب سيدة تحمل طفل على الأرجح كان ابنها وعائلته.

شقتها تختلف عن نسق الشقق التي تؤجرها، إنها شقتين متداخلتين، وأثاث بيتها عتيق، وغالي، وذا ذوقٍ رفيع.

وما تفرشه، وتعلقه، نظيف وعريق.

أبهرني ذوقها، ولم يزل اندهاشي من دعوتها، فليس لي بها صلة، ودائما مواعيدها لا تتفق مع مواعيدي، فنادرا ما نلتقي، وحينها لانتكلم إلا باقتضاب وحسب.

بعد انتهاء المراسم، والترحيب بي عدة مرات، انضم للحفل الغريب، الذي لاحظت فيه عدم اندماج أطرافه، فصاحبة الدعوى تجمع بعض المدعوويـن حولها، والسيدة الشابة تلاعب ابنها، أو تتظاهر بهذا، رغم نومه معظم الوقت.

منكفئة عليه، تناجيه بهمس، والزوج إما يتحدث بالهاتف المحمول، الذي أصبح بيد الجميع، وانتشر بسرعة، أو تستقطبه أمه بجانب مدعوويها وبجانب شخص آخر انضم حديثا للحفل.

حاولت الجلوس بالقرب منها، كانت شاردة، مهمومة، زائغة النظرات.

إقتحمت مراقبتي صفية، أعطتني عصيرا، وعرفتني على حازم ابن أخيها، وهو نفسه الشخص الذي حضر متأخرا، وكأن الحفل عينه لا يعنيه، إنما جاء لهدفٍ آخر.

– ياسمين، طالبة بالجامعة، السنة الثالثة، مثالية في كل شيء، دفع الإيجار بانتظام، وما يستجد بلا مناقشة، هادئة، لايصدر عنها أي مشاكل، عيبها الوحيد أنها تترك البعض يستغلها.

لم أعِ ما قصدت بجملتها الأخيرة، لكني تجاوزتها.

– أهلا بكِ ياسمين، في أي دراسة تتخصصي؟

كان وسيما، جميلا، جذابا في صوته، كلامه، ملابسه، وطريقة تناوله الطعام، والماء.

أجبتـه وأنـا أقـاوم إعجـاب طـاغٍ بـه.. التاريخ..الآثـار، وفـي العطلة أتعلم الفرنسية.

- عظيم ...

أنا بصدد إنشاء شركة سياحة، لكن غير هؤلاء التقليديون

الذيـن يعتمـدون علـى وسـائل تقليديـة، وطـرق قديمـة فـي العمل، وهم منتشرون.

أحببت ساعتها دراستي، واحترمت قراري بدراستها.

ندمـت أنـي لـم أدقـق بمظهـري، ولـم أتزيـن، تمنيـت أن أتـرك الحفل دقائق، أعيد ترتيب ملابسي، وأصفف شعري أفضل.

قطعـت صفيـة كلامـه، وأخذتـه مـن زراعـه، واختفـت، كنـت أقـاوم تأثيـره بصعوبـة، لقـد جذبنـي بقـوة كمغناطيـس. أخرجنـي تماما من حالتي الأم الصغيرة التي هيئ لي أنها تبكي.

فاقتربـت، لا أعـرف لـم؟ زحفـت نحوهـا أكثـر فـإذا بصفيـة تقاطع أفكاري:

-هـل تصلـح هـذه زوجـة لمحـامٍ محتـرم، سـليل عائلـة ذات أصول؟

كانـت مجـرد صاحبـة قضيـة تافهـة، هـي وأمهـا وفجـأة أراد الـزواج بهـا، لوكانـت جميلة، لـو كانـت غنية، لـو كانت ذات نسـب عال، إنه نصيبي السيئ الذي ابتلاني بها.

أدركت مدى مأساة الزوجة، وما تعانيه من حماتها، وما تقذفه من حمم الكره، البغض والإنكار في وجهها، ليتها ما تزوجت من ابن تلك السيدة التي تتودد للجميع، وتلبس لباس الحب، والرقة أمام الجميع، وهي قاسية متحجرة.

سألتني كأنها تتهمني:

ما الداعي لمصاحبة تلك الفلاحة؟ ماذا تجنين من ورائها؟

ولم تتحمليها؟ وهي ليست كمستواكِ!

لم أعرف كيف أرد، خفت الإنفعال، وحازم كان غير بعيد عنا.

– ألابد هناك مصلحة من مصاحبة الناس لبعضهم، ألا يكفي أنها فتاة صالحة، مجتهدة، تتحدى ظروف صعبة، وتتفوق عليها.

ثم هل الفلاحة سُبة، ألا تعلمين سيدتي أني فلاحة أيضا، من مدينة زراعية، وكل أصولي تنتهي بفلاحين.

– لم أقصد اهانتك بالطبع، فليس كل الفلاحين مثلها، هناك ذوي الأصول العريقة، وهذا يبدو من تصرفاتك، ملابسك، وكلامك، ويكفي أن والدك مهندس، ووالدتك أستاذة، ولديكِ ثروة.

لدي ثروة، والدي، ووالدتي، مَن أخبر تلك السيدة التي لا أرى ميزة تميزها سوى ابن أخيها.

إن يمنى مستحيل أن تتخوض فيما لايخصها.

ووالدة اختيار لا تعرفها جيدا، ولم ترها سوى مرة.

اختيار كذلك.

مَن أخبر إذن تلك المرأة عني؟

صعدت لشقتي، وأنا أريد نسيان كل الأحداث، ماعدا حديثي وحازم.

احتضنت وسادتي، واعتقدت أن عقلي الباطن لابد وأن يبعث لي حازما في الحلم، لكنه خذلني. أيقظني صوت جرس الباب، فإذا بيمنى تقف أمامه.

لم أخفِ اندهاشي، فمازالت العطلة الصيفية في منتصفها، ومن عاداتها العودة لاستئناف الدراسة، بعد أسبوع، أو أسبوعين من بدايتها.

- تفضلي...

- أعلم عن تعجبك، لكني لم أستطع المكوث هناك فترة أطول، حدثت مشادة بيني وبين أبي، وتحول الأمر لمشاجرة عنيفة بين إخوتي وبيني، فلم يكن هناك بد من المغادرة.

أعلم أني سوف أضايقكِ، لكن ستجدينني إن شاء الله من المهتدين.

ابتسمت لها؛ لأطمئنها.

– هـل تعلمـي أنـي كنـت أحتاجـك بالفعـل، تمنيـت أخـت، وها أنتِ وصلتِ.

كـم كنـت أحتاجهـا بالأمـس؛ لتدلـي برأيها فـي ملابسـي، واليوم أتمنى أن أحكي لها عن حازم، لكنها كانت مهمومة، ساهمة

بدرجة لم أعهدها بها من قبل، ولولا أن يمنى تصب بلسانها

مـا بجوفهـا بـآذان الآخريـن، لكنـت اعتقـدت أن للموضـوع شكل

آخر، أو أن هناك سر.

خرجت وحـدي فـي اليـوم التالـي، قابلـت اختيـار كما ألفتـه، لم أذكر شيئا عن يمنى، ولا عن حفلة الأمس.

رجعـت ليمنـى محملة ببعـض الأشـياء البسـيطة، فوجـدت البيت أكثر نظافة، ترتيبا، ولمعانا.

– لكِ طريقة مميزة في تغير الأشياء دائما للأحسن

– ليس كل الأشياء.. قالتها بأسى، ولم أعقب.

حاولت معها البحث عن كيفية معرفة صفية بأمري.

فتطـرق الـكلام لذكـر حـازم، لمحتهـا يمنـى، أو ربمـا صرحـت أنا زيادة عن اللازم.

لـم أخبرهـا بمـا حدثتنـي بـه السـيدة عنهـا وعـن نظرتهـا الدونية لها.

لكني عزمت على فعل أمرٍ.

– مارأيـك يمنـى، تزوريـن بلـدة صغيـرة، تحتسـب مدينـة، هناك على أطراف الخريطة.

– ماذا تقصدين؟

أريـد زيـارة لأبـي؛ أحصـل علـى إيجـار البيـت، لأن طريقـة الحوالة البريدية التي يبعث لي بها أبي النقود باتت بطيئة.

– لو لا تمانعين، معي من المال مايكفي.

– أريد هاته المرة مبلغا كبيرا.

– أوافق.

هاتفـت أبـي، أعلنتـه بمـا أريـد، قضيـت الليـل ويمنـى ببيتـي هناك.

في الصباح، تركتها، ذهبت وأبي، ولأول مرة

أقبض من مال أمي.

طلبـت مبلغا كبيـرا بالنسـبة لـي، تعجب أبـي وسـأل، أجبتـه، بأن للدراسـة، والمظهـر، ودورات اللغـات، والمعيشـة فـي مدينـة كبيـرة وغيرها أمورا تتطلب مالا وفيرا.

لـم يقتنـع أبـي فهـو يعلـم مـدى حرصـي علـى كل مـا يخـص أمي، وكثيرا ما رفضت المساس به.

كانـت مازالـت آثـار فرحتـه بابنـه المنتظر،علـى وجهـه تغشـاه، وتمحو آثار سنه، وتجعله أكثر رقة.

خرجنـا مـن البنـك ومبلغـا كبيـرا بالنسـبة لـي، لـم تمسـكه يـدي قبـلا، تذكـرت صاحبـة الفضـل علـى حياتـي، والسـبب فـي حريتي؛ فلولاهـا، مـا درسـت برغبتـي، ولا اسـتقليت بنفسـي، وتنائيـت بهـا بعيدا عن كل ما يؤرقها.

أبـدت يمنـى إعجابـا بمكتبتـي، ومـا تحتويـه مـن درر، ولـو أنهـا لا تحب القراءة.

اسـتأجرت سـيارة، ورحـت وصديقتي، فـي رحلـة لبلـدة اختيار، لاأدري، لمَ أردت تعارفا بينها وبين ضحى.

اسـتقبلتنا السـيدة بترحابهـا المعهـود. أخفـت اندهاشـها خلـف حفاوتها، حتى لا نراه، لكني شعرت به.

كل شـيء ببيتهـا كمـا رأيتـه أول مـرة، لكنـي كنـت أقـل توتـرا، وإحراجا من المرة الأولى، وأكثر حرية كذلك.

رأيـت بدريـة تحضـر الطعـام، وترصه، وسـلم والـد اختيـار عليَّ بودٍ أكثر، وصمم في النهاية على توصيلنا بعد أن سرح السائق

أردت ذكـر ميـزات يمنـى أمـام ضحـى، أردتهـا تهتـم بلفـت نظر إختيار لها.

بعـد وصولنـا القاهـرة، وقبـل أن نحـل بمنزلنـا، قمـت بجولـة علـى متاجـر الملابـس مـع يمنـى اتخـذت مـن رأيهـا دليـلا فـي اختياراتي، وأجبرتها على شراء ملابس جديدة.

عدنـا للمنـزل بمظهرنـا الجديـد. قابلنـا صفيـة علـى عتبـة بيتهـا الأنيـق، ألقينـا عليهـا السـلام بـلا مبـالاة، وأجزمـت أنهـا اندهشـت وربما اغتاظت من مظهر يمنى الجديد.

أردت سؤالها عن حازم، لكني تراجعت.

منـذ انتظـام الدراسـة، وأنـا أحـاول التقريـب بيـن اختيـار ويمنـى كنـت فـي منتهـى سـعادتي عندمـا أشـعر بانسـجام يمـلأ المسـافة التـي كانـت بينهما، كنـت بقـدر الإمـكان أتـرك لهمـا الحريـة بعيدا، والتغيب بعض الوقت لأتيح لهما زمنا لولادة حب.

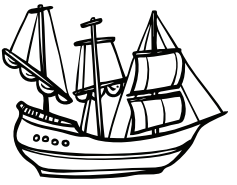

.....

(12)

حالـــة أخـــرى

هل أنـا صالحـة للحـب؟ مجـرد تسـاؤلي، يعنـي أنـي انتقلت من تلـك الحـال التـي كنـت عليهـا طـوال حياتـي السـابقة، إلـى حـال أخرى، تكتنفني لأول مرة.

رقـم غريـب يظهـر علـى شاشـة جوالـي منـذ فتـرة، لا أتجـاوب في البداية، فيعيد الاتصال....

حازم.. كان هو صاحب ذلك الرقم!

- من أين أتيت بالرقم؟!

- من عمتي طبعا.

- لكني لا أتذكر أني أخبرتها به.

- المهم، كيف حالك؟

- جيد

– كيف العام الجديد ، المذاكرة؟

– الحمد لله، بخير.

سألتني يمنى عن سر دهشتي المختلط بالسعادة عقب تلك المحادثة القصيرة.

كنت أريدها أن تحكي لي عن تطور علاقتها باختيار؛ لتشجعني على الحكي لها عن مشاعري الجديدة.

لكنها أبدا لم تحكِ.

هل لم يتقابلا بدوني؟ أم يتقابلان ولا يعلماني؟

هل يتناجيان طوال الليل، دون علمي؟ هل صنعا إشاراتٍ خاصة بهما للتفاهم من خلالها، في وسائل المواصلات التي نستقلها يوميا، أو أثناء سيرنا بالشوارع، وداخل الجامعة؟

أم هل وجودي يعطل تواصلهما؟

يمنى واضحة جدا، شفافة، لو كان بداخلها شيء لرأيته.

أم أن للحب مقاييس أخرى؟

تحدثت سلوى لأول مرة معي هاتفيا عبر هاتف أبي.

– أبيك مريض جدا، احضري فورا، ثم صوت متهدح يشوبه بكاء.

انتفضت، أوجزت ليمنى، انزعجت، عرضت مرافقتي، رفضت.

في غضـون ثلاث سـاعات كنـت علـى مشـارف مدينتنـا، اتصلت بسـلوى، وصفـت لي عنـوان مستشـفى صغيـر؛ اسـتأجرت تاكسـي، كنت داخل حجرة أبي بعد عشرين دقيقة.

حجـرة متواضعـة، أبـي جيـد الصحـة يتضـح عليـه آثـار تعـب، إرهاق، ربما يعاني دوارا، لكنه هيئته لا تزعج كما توقعت.

أخبرتنـي زوجتـه: أنـه وقـع منهـارا، عقـب معرفتـه أنهـا تحمـل في بطنها بنتا، ثم لوت شفتاها.

بجانبـه، ظَـل يعيـد نفـس كلماتـه المكـررة، عـن حلمـه الضائع، المفقود.

ندمـت أنـي قطعـت هـذه المسـافة لأسـمع ذات الكلمـات التـي سـمعتها منـذ سـنوات كمـا هـي دون تجديـد، إلا أنـه غيـر كلمـة واحدة: سوف أكون أبا لثلاثة بنات.

هكذا نسيني مرة أخرى.

جرتنـي سـلوى معهـا لأقابـل الطبيـب، وصاحـب المشـفى، أخبرنـي أنـه يعانـي متاعبـا بالقلـب، وأنـه دعـم قلبـه بشـكل مؤقت، لكـن عليـه المتابعـة، المحافظـة فـي الطعـام، المجهـود، التدخيـن، والانفعال.

ثـم حدثنـي عـن حسـابه وحسـاب مستشـفاه إجمـالا، أخبرنـي أيضا أن السيدة سلوى، أجلت الدفع حتى يتحدث معي بشأنه.

بحثت عنها حولي، لم أجدها، كانت بجانبي منذ ثوانٍ، فجأة اختفت.

دفعت له ما بداخل حقيبتي، كان باقي المبلغ المسحوب من البنك.

وكان كاف، وتبقى معي القليل.

دلفت حجرة أبي ثانية، سألت عن زوجته، فأخبرني أنها شعرت بتعب، والبنتين وحدهما؛ فغادرت للبيت.

تركتني وحدي أتحمل رعايته، وتكلفة علاجه، واختفت.

في آخر اليوم، كنا نتأهب لمغادرة المشفي، فإذا بزوارٍ يدقون الباب.

اختيار، ووالديه.

أخبرت يمنى اختيار، فأخبر أمه، فتقابلوا جميعا هنا، بعد أن اتصلوا بجوال أبي؛ فأجابتهم سلوى.

شكرت لهم ذوقهم الرفيع، ومروءتهم النادرة.

بعدها، وبينما كلنا جالسين نتبادل كلمات الترحيب، فوجئت بزوارٍ آخرين!

صفية، وحازم!

لم أستطع كتم دهشتي...

- من أين عرفتِ سيدتي؟

- عندما سألت عنك صديقتك.

- ومن أين لك بعنوان المشفى؟

- اتصلت بهاتف أبيك، فردت زوجته؛ فوصفت لنا الطريق.

في داخلي تساءلت، وابتسامتي على وجهي تحيي حازم والجميع.

ما العلاقة الوطيدة التي تجعلها تقطع كل تلك المسافة؛ لتزور والدي؟

هل حازما أجبرها؟

أظن من مثلها لا تُجبر، وإلا كان ابنها أجبرها على تقبل زوجته.

أكملت اطمئناني على أبي في بيته، وقابلت أختاي الصغيرتين، تمنيت له دوام الصحة، وأوشكت على المغادرة، لكني تراجعت وأنا على عتبة حجرته:

- هل لك معرفة سابقة، بالسيدة صفية مالكة العقار الذي أستئجر لديها؟

- نعم أعرفها منذ كنت معكِ، في الإتفاق المبدئي معها على تفاصيل السكن، ولكني طلبت منها أن تتحرى عن كل

مـا يضايقـك، وأن تهتـم بـكِ، وأعطيتهـا رقـم هاتفـي؛ لتخبرنـي بأي حدث يطرأ.

– لكنهـا تعلـم الكثيرعـن ميراثـي، هل هـذا لـه علاقـة باهتمامها بي.

– مؤكـد، لولـم أكن قلـت لها أنـك سـليلة أسـرة عريقـة، ولديك تركة جيدة، لما قدرتك ولما أعارتكِ اهتمامها.

غـادرت غرفتـه متوجهـة للبـاب؛ لأعـود مـن حيـث جئـت؛ فاستوقفني أبي قائلا: شكرا لكِ ابنتي.

اتصـل بـي اختيـار؛ يخبرنـي أنـه أمضـي اليومين السـابقين مـع والديه، وسيعود معي.

دائمـا أي فرصـة تصنعهـا الصدفـة؛ لينفـرد اختيـار، ويمنـى يضيعها القدر.

كنـت طـوال الطريـق، أحدثـه عـن فضائـل يمنـى، وكان يسـتفهم مني عن حازم، الذي ظهر بيننا فجأة، دون أن يدري.

اسـتقبلتني يمنـى بلهفـة الإخـوة، كنـت قـد أخبرتهـا أن الأمـر ليس خطير.

أصبـح حـازم كثيـر التواجـد مـع ثلاثتنـا، ربمـا تسـاءل كل مـن صديقـاي عـن اقتحامـه لنـا، ربمـا اندهشـا؛ لعـدم صـده؛ وهـم يعرفان أني لا أسكت عن مقتحم.

تمنيت أن يسألني أحدهما عن صفته التي تعطيه الحق في مرافقتنا، تمنيت أن نتحول لثنائيين؛ أنا وحازم، ويمنى واختيار، إلا أن أي منهما لم يفعلها، حتى عندما كان حازم ينأى بي قليلا عنهم بقصد، لا يحاولان أن يفعلا مثلنا.

ظل حازم غريبا بيننا رغم محاولات تودده؛ فانصرفت يمنى سريعا من بيننا إلى دراستها متعللة بصعوبتها، ونحن نضيع وقتا كبيرا، لا طاقة لها به، ولكنها لم تذكر أنها انسحبت بسبب حازم.

لكن اختيار ظل، ظننت أنه سيحذو حذو يمنى، لكنه تركها تغيب دون اكتراث.

كان لابد من وقف حيرتي فاضطررت لسؤالها:

- لماذا تقصدين الابتعاد عنه، ودائما لا تبالي به، لماذا لا تتركي له ولك فرصة؛ للتجاذب، والتعارف، لماذا لا تحبيه؟

لماذا تقتري في مشاعرك؟

كنت أعنفها لا أعاتبها، ألبست كلامي صيغة الأمر، لا النصح، ولا أعرف سر انفعالي يومها.

هل لأن محاولاتي للتقريب بينهما، وخلق حب لم تفلح، هل من فرط حبي لهما؟

لكنها ردت بهدوء...

– ولماذا تريدين أن أحب اختيار؟

فـي الحقيقـة، لـم أسـتطع إجابتهـا، لكنهـا قالـت: إن علمـت الإجابة ستحلين الكثير من عقدٍ تصنعيها بإرادتك داخلك.

خففت انفعالي، أنت تتكلمين كطبيب نفسي!

– هل تنوين التخصص به؟

ردت بسخرية...

– ليتني أستطيع، لكنه في بلدتي لا يسمن ولا يغني.

النـاس تعالـج بدنهـا؛ لتضمـن بقاءهـا، وتخفـف أوجاعهـا الحسية، أما الأوجاع النفسية، فلا تصيب إلا المرفهين.

– فـي الحقيقـة يا يمنـى، أريـد إخبـارك بشـيء وكنـت أتمنـى أن تخبريني مثلـه، لكني يئسـت منـك؛ فسـأحكي لـك؛ لأنـي أود ذلك منذ فترة:

أنا متعلقـة بحازما، وأشـعر بشـيء مـا ناحيتـه منـذ أول مـرة رأيته فيها، وأشعر بانجذابه تجاهي وإلا لمَ يرافقنا أغلب الوقت!

لم تدلِ يمنى برأيٍ، ولم أشعر بسعادة إذاء ما أفرغت بأذنها.

– كان هذا واضح يا ياسمين جدا، وكنت أتوقعه،

– لكنك لم تخبريني برأيك؟

– المشـاعر ليـس فيهـا آراء ياسـمين، مـاذا يفيـد رأي أو وجهـة نظـر فـي إحسـاس تولـد ليُصـوب لقلـب آخـر، لـن يؤثـر فيـه إلا

النبـض، الـدفء المتبـادل، لا مجـال للنظريـات، ولا الفلسـفات المعقدة.

– أراك تتحدثيـن عـن الحـب بعمـق، أكاد أجـزم أنـك داخـل قصة.

– لـن أخفـي عنـك ياسـمين، أتذكريـن عندما جئـت قبـل العطلة من البلد، وأخبرتك أن مشاجرة نشبت بيني وأهلي؟

– نعم

– لم يكن الأمر كذلك.

لي ابن عم، كان أهلينا قد قررا أن يزوجانا حين نكبر.

لكـن، نشـأ بيننـا حـب وأخـذ ينمـو، يتعمـق حتـى تملـك قلبينـا، ووافقـت رغبتنـا رغبـة ذوينـا، حتى قـررت بعـد نهايـة الثانويـة العامة، وحصولـي على مجمـوع درجـات يؤهلنـي لأفضـل الجامعـات، في الإلتحـاق بكليـة الطـب، والسـفر، ورغبتـي فـي الوصـول لأعلـى درجة في سلم التعليم.

سـاعتها اعتـرض اسـماعيل ابـن عمـي، ورغـم أن الجميـع اعترضـوا، إلا أننـي حزنـت لعـدم مـؤازرة اسـماعيل، وعـدم وقوفـه بجانبي، ودعمي.

والأكثر مـن ذلـك، أنه عـرض علـي اختياريـن إمـا هـو أو مواصلة تعليمي.

قال: أنـه لـن يقبـل أن تكـون زوجتـه طبيبـة، في حيـن أنـه بالكاد حصل على شهادة متوسطة بعد عناء.

ورغـم أنـي اختـرت طريـق العلـم، وفضلتـه، إلا أن الأمـل كان بداخلـي أن يغير وجهـة نظـره، ويسـمع لكلامـي، ويوافـق أن يلتحق بالجامعـة المفتوحـة، التـي تقبـل مـن مثلـه، وتمنحهـم دراسـات في تخصصات مختلفة، ثم شهادة جامعية عليا.

رغـم ذلـك لـم ينقطـع لـدي الأمـل، وحبـه لازال يسـتقر بقلبـي، لكن فـي زيارتـي الأخيـرة فـي العطلـة الفائتـة، فوجئـت بأنه يسـتعد لحفـل خطبتـه مـن أخـرى؛ لذلـك حملـت نفسـي وسـافرت تاركـة الجميع ورائي، هاربة منهم.

علمت الآن أن قلب يمنى مغلقا على حب، وجرح، وألم.

ليتكِ أخبرتني من قبل يا يمنى، قبل أن أرسم خططا، وأبني وهما.

سـارت الحيـاة بـي رتيبـة، متشـابهة، بطيئـة كذلـك فتـرة مـن الوقـت، هاهـو حـازم يتخـذ مكانـه، واختيـار جنبـا إلـى جنـب بمحازاتـه تمامـا، كذلـك يمنـى تتسـلق سـور العلـم باجتهـاد وتفان، وصبـر، لكنهـا كانـت أكثر حريـة فـي حزنهـا بعـد بوحها لـي، ونأت عن جمعنا معظم الوقت.

أبـي هنـاك ينتظـر بـلا شـوق، مرغمـا مولودتـه الجديـدة، وبيـن الحين والحين يهاتفني بصوتٍ يائس.

خالي وزوجته وأشرف، يحادثاني كثيرا، ودائما يتحدثون عن رغبتهم في زيارتي، ولا يجدوا مني غير الصد المهذب.

في لحظة ود صافية، بيني وبين اختيار، بلا حازم أو يمنى ذات عودة من الجامعة، حاولت توجيه الكلام؛ ليتطرق لحازم، لأكشف رأي اختيار فيه؛ فقد تقبله بسهولة بيننا، ولم يتكلم عنه أبدا في غيابه، ولايتكلم عنه أصلا، واكتفى بتعريفي له بأنه قريب لمالكة عقارنا الذي نسكنه، وأنه مهتم بالآثار، والسياحة، ولديه طموحات جمة في مجالها الواسع، ويشرع في انشاء شركة، وفندق صغير على قطعة أرض ورثها في منطقة سياحية جديدة.

- شخص لامع معتم.

- هل تصف مادة في المعمل يا اختيار؟

- معتم يعني لا أقدر على رؤية داخله، لا أعرف كيف يفكر رغم أنه كثير الكلام، يسألنا كثيرا عن تفاصيلنا، رغم أننا لم نسأله، ونكتفي بما يخبر به.

أما عن لامع؛ فهو شديد الأناقة، دقيق في اختيار ألفاظة، يعتني بنفسه جدا، رقيق للغاية، ودود بدرجة عالية، جذاب؛ أي أنه يلمع؛ فيبهر، فتزداد العتمة؛ فيزداد غموض.

أعلم تماما ما الذي يرفضه اختيار في حازم، التناقض الواضح بينهما؛ إختيار بسيط، تقليدي، عادي، متواضع جدا لدرجة أنه يجهل قيمة نفسة، وإمكانيات ذكاؤه.

بعـد نهايـة الامتحانـات، كانـت يمنـى تجهـز حقيبـة سـفرها، حاولت إقصائها عن السفر؛ فرفضت

– ليـس مـن الممكـن الهـروب أكثـر من ذلـك، لـن يسـمحوا لي ولن أستطيع.

– أيمكنني السفر معكِ؟

– لمَ؟!

– ألا تريدن استضافتي يومين أشاهد بلدتك الصغيرة؟

– بالطبـع أريـد، هـذا يسـعدني، لكـن إن كان خوفـا علـي فـلا تقلقي مازلت قوية.

– يعلـم اللـه يـا يمنـى، أنـي أرى فيـك أختـي الحقيقيـة، أحبـك وأحتـرم عقلـك، أريـد أن أكـون بجانبـك فقـط؛ ليسـترح قلبـي، ثـم أنـي – كمـا تعلميـن– أمكـث وحـدي فتـرات طويلـة، فـلا بـأس ان اقتطعت من وحدتي أياما قليلة معك.

علمـت مـن أبـي ذات اتصـال؛ أن مولودتـه؛ التـي لـم أسـأل عن اسمها، تعاني شيئا خطيرا..قال أشياءً أخرى، لم أهتم بها.

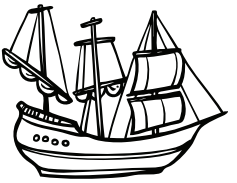

.....

(13)

زيـــــارة

من يـرى غريقـا، يجـب أن ينقذه، لـو كان يسـتطيع السـباحة، وإن لـم يكـن، فليصيـح بأعلـى صوتـه، يركـض فـي كل اتجـاه؛ حتـى يجد من يساعد على إعادة الحياة لروح على حافة الهلاك.

الحـب بيـن صديقتـي، وحبيبهـا؛ كائنـا مـازال ينبـض، لكـن كان لابد من يد تمتد؛ لتنقذه، وتمنحه قبلة الحياة.

أول مـن قابلنـا كان نـادر، جـرى نحـو يمنى، حمـل عنـا الحقائب، وسار بحانبها يتحدث عن الأحوال، عرفتني به:

نادر، جارنا يكبرني بعام واحد وأخي في الرضاع.

ياسـمين، صديقتـي فـي الجامعة، اقتسـمت معهـا بيتهـا، وزاحمتها فيه.

رأيتـه فتـى جميـل، ذا ملامـح واضحـة، مرسـومة بدقـة. يرتـدي ملابس ريفية، لكني وجدتها غير لائقة به.

سبقنا على دار يمنى، فأخبرتني أنه يتيم الأبوين منذ ثلاث أعوام، في البداية كانت أمه، توفت إثر مرض خطير، ولحقها أبوه في حادث عادي، ومنذ ذلك الوقت، وهو يتوق للسفر، ويجمع المال؛ ليستطيع الهجرة إلى الأبد، تخرج في الجامعة العام الماضي، يعمل مع إخوتي لدى اسماعيل ابن عمي، ولا يفتأ يذكر السفر، ولا يتراجع، وأمي التي تولت أمره بعد وفاة أمه وحتى الآن، تحاول إثناءه عن ذلك، وتزويجه، لكنه يرفض تماما.

ذكرني ذلك الفتى الوديع»نادر» بنفسي، وبرحلة هروبي الدائمة.

كان بيت يمنى جميلا، ليس كما تصورته فقيرا، ضيقا، بائسا

كان أيضا يتكون من دارين فوق بعضهما؛ فأعطونا الدار العليا، بعد ترحاب من الجميع.

لجأت لنادر؛ حتى يمكنني تنفيذ ما جئت من أجله.

أردت منه تدبير لقاء بيني وبين إسماعيل.

أدركني نادر بنظرة ثاقبة، كان مطيعا بدرجة مدهشة.

اسيقظت مبكرا جدا، ومازلت يمنى نائمة في حجرةٍ أخرى. انتظرني نادرا حسب موعد مسبق متفق عليه، أخذني لمكانٍ متطرف، ثم تركني وحدي، ثم عاد من بعيد ومعه آخر، كان هو إسماعيل.

تعجب، وحاول أخفاء ذلك، كان حذرا جدا وهو يواجهني، ويتحدث معي بكلمات استهلالية حريصة.

– أعرفك تماما، من أحاديث يمنى، وصفتك لي ذات حديث لها عنك، وها أنا ذا أرى وصفها دقيق، حتى خيل لي أني رأيتك من قبل، أتعلم السبب؛ لأنها وصفتك بقلبها.

أخذني حتى مصطبة ذات ارتفاع، وقال: وماذا أيضا؟

– لا داعي لقولي أنها تحبك بقوة، وكانت نفس قوة صدمتها التي دوت في أعماقها بعنف.

لا داعي أيضا أن أخبرك كم تألمت من جراء جرحك لها.

هل ما قلته أنعش غرورك، وأرضى كبرياءك؟

ماذا لو علمتْ تحولها من فتاة مرحة، انبساطية، شفافة، إلى أخرى تنزف حيرة، ووجع؛ بسبب تخليك عنها.

قاطعني..

– ماذا لو علمتِ أن ما ذكرتهِ أصابني كله. لماذا ترينها ضحية، وهي من جنت على الحب وأودت به صريعا؟

– لكنك رفضتها، وخطبت أخرى.

– رفضي كان نتيجة رفضها.

– ليس تمسكها بطموحها، ونجاحها، ومستقبلها رفض لك، أنت أردتها تتنازل عن كل شيء فداء لك، ولم تقدم أنت أي مقابل.

– وهكذا أنا، ومازلت لا أقبلها أفضل مني علما، ومكانة.

– ألابد للمكانة أن تكون علمية، ربما مكانتك العملية تساوي وتفوق ماتصل هي إليه في طريق التعليم.

ويمكنك أيضا مواصلة مسيرة تعليمك بسهولة؛ لتتكافآن، إن كان ذلك فارقا بينكما، يسهل التلاقي عند نقطة.

– لكني ارتبطت، ومنحت أخرى كلمة، ووعد.

– ربما تجد من أفضل من يمنى، وربما تجد يمنى من هو أفضل منك، لكن سيحيا كلاكما في ظلمات الحب الضائع، وستهاجمه الذكريات دوما، وتكون حياتكما نصف حياة فقط، ولستما بهذا تظلمان قلبيكما فحسب، لكن قلوب أخرى استأمنتكم.

طلبت منه حفظ مضمون المقابلة سرا، فلا تعلم به يمنى أبدا.

– أتمنى عليك التفكير مجددا؛ فالأمر مخيف، حاول إنقاذ نفسك، والأخذ بيد محبوبتك التي لا أصدق، أنه يمكن التضحية بها.

سكت طويلا...

لم أكن متأكدة هل ما قلته أقنعه، أم ظل على موقفه، كل ما تكهنت به؛ أنه متسربلا بالعشق، ولكنه يجاهده، ويحاول الهروب.

شاهدت البلدة عن قرب؛ حينما قررت يمنى اصطحابي؛ لتعرفني بها. قضيت يومين لم أتوقعهما

ودعتني يمنى عند مدخل البيت، ورافقني نادرا لمحطة القطار. سرنا دون أن نتحدث، إلا السلام عند المغادرة. كنت أتمنى أن يدور بيننا حوار.

ظللت طوال طريق عودتي، أسبح بعيني داخل المحيط الأخضر، المترامي، أسرح فلا أفكر في شيء، كانت فقط عيون نادر السوداء، الحزينة، الغير مستقرة، تقتحم رحلة عقلي بين الحقول، حتى رأيته يمسك يدي بقوة، بحلة جديدة ناصعة، ووجه براق، متأنق، خيل لي في البداية أني لا أعرفه.

فابتسم قائلا بعذوبة: ألا تعرفينني، أنا نادر، وكان يقترب مني أكثر من المعقول..

شهقت مستيقظة من غفوةٍ لا أعرف مدتها.

قال إختيار بشيء من العتاب: سافرت، فلم تخبري أحدا.

- وأنت لم تتصل لمعرفة السبب.

- فكرت في أن ذلك ليس من حقي، خفت أن تعتبريه تدخلا، وتتهميني بالتطفل.

حازم، هو من كان مواظبا على اتصاله بي، بشكلٍ منظم، منتظم، يوميا، في نفس الموعد تماما، وإذا كانت لديه نية

لاتصال آخر، يستأذن في نهاية الإتصال الأول، اعتبرت ذلك تأدبًا، ودليلا على أنه تلقى تربية دقيقة، أورثته هذه المثالية؛ التي أراها كمالا، ويراها إختيار لمعانا مبالغ فيه؛ يعمي من يراه؛ فلا يكشف ما بداخله.

تُرى، لو رأى إختيار نادر ماذا سيكون رأيه فيه.

أحب دائما آراء إختيار؛ فهي دائما غريبة بعيدة عن المألوف، في حين يقتنع هو بها تماما.

حدثني أبي بعد غياب، أن طفلته رحلت إلى جوار ربها، متأثرة بعيوب وُلدت بها.

لاحظت أن أبي غير حزين، أو متأثر بموت ابنته.

وربما لاحظ أبي؛ فأخبرني أن الأطباء كانوا قد أعلموه أنه على الأرجح لا فائدة؛ فهي تتدهور باستمرار.

أردت سؤاله عن اسمها، لكن وجدت ذلك، لم يعد مهما.

هكذا آثرت الفتاة التي لم يردها أبيها، الابتعاد عن حياته نهائيا، وتنحت عن حياتها من أجله.

في بداية السنة النهائية، والتي تأملت بعدها الطيران بعيدا؛ فكان حولٌ مليء بالأمنيات، مكظوظ بالخيال المحلق هناك في المدى البعيد، أقتنص حلقة أخرى من الحرية، حتى أصل لمنتهاها، وأقف فوق قمتها، أكشف المقيدين، المعذبين عند السفح يتمنوا نيلها مثلما نلتها.

شخص ما سيقاسمني نجاحي، سيعافر معي، ويتسلق المستحيل، ويشاركني القمة التي عندها، لا شيء يهم، لا قيود، لا تنازل، لا ألم بغيض لوحدة تأسرني بزنزانتها.

لا أرى ذلك الشخص سوى حازم، هل سيصمد حتى النهاية حتى أتغلب على خوفي، ترددي، تشوشي؟ هل سيبغض رغبتي في التحرر من جميع ما يؤرقني؟

حدثتني يمنى، بسعادة لم توضح دواعيها، لكني كنت أعلم، وأفهم.

حكت بعد رجوعها لاستئناف الدراسة، مقتطفات مما حدث...

قالت: فسخ خطبته. أعاد بعض مما كان بيننا، بدا مترددا، لكني أحس بالأمل، بات يفكر في توسيع نشاطه التجاري، والاستقرار في المدينة المتاخمة لبلدتنا، والتي تتبعها.

كانت كل فترة، تحكي جزءً من الحكاية، اعتقدت أنها لا تهمني، لم تكن تعلم أني أتوق لسماعها كاملة، بتفاصيلها، كلمة، بكلمة، وتنهيدة، بتنهيدة.

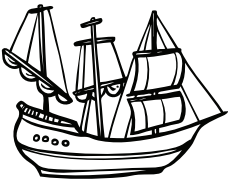

.....

(14)

عيد ميلاد غير سعيد

مؤكد أن ذكرى المولد لها مكانة خاصة في نفوس الناس. وإلا لمَ يحتفل غالبية البشر بيوم ميلادهم، وصنعوا منه عيد؟

لم أحتفل بعيد ميلادي ولا مرة، ولم أحصل على هدايا بمناسبة حلوله، كان يوم ككل الأيام بلا أي طقوسٍ خاصة.

في نفس الأماكن كنا كما كنا أنا، إختيار، وحازم، ويمنى لم يتغير سوى الزمن، وزيادة أعمارنا عام آخر.

اتصل أبي ذات نهار:

- كل سنة وأنت طيبة.

- أول مرة تتذكره،

- لأنه هذه المرة أهم.

- سكت، ولم أنبس، وقعت من عيني كتلة من الدموع، انهمرت، قطعت صوتي، حبسته.

تأكد أبي أني قيد الإتصال مازلت، لكني، ضغطت بإصبعي على ذر الغلق، وأخذت أنتحب.

تذكرت أمي التي ملكتني سر سعادتي، ومكنتني من حريتي، أي قدر الذي جعل من موتها، وحرماني منها ثراءً واسعا ما فتئ الجميع يتباهون به، وهو مرٌ أجتره كلما ذكروه.

– عاود أبي مهاتفتي؛ لإنجاز إجراءات إنهاء الوصاية.

أخبرت أصحابي، بضرورة تغيبي عنهم، يومين قابلين للزيادة

وبينت السبب، سكت إختيار، ويمنى، في حين هنأني حازم؛ فلم أرد.

تنبأ الجميع لإختيار بالتفوق، أحبه الأساتذة؛ لاجتهاده الملحوظ، وأحبه الطلاب؛ لنبله؛ فلا يتوان عن مساعدة أحدهم.

ورغم انشغاله، واختلاف قسمينا؛ إلا أنه ساعدني كثيرا في الأبحاث، المشروع النهائي، وتوجيهي للكتب والمراجع الممكن الاستفادة منها دون أن أتكلف عناء البحث، كان كذلك مع الجميع، يتصرف بسهولة، أثرة، وطيبة.

حاولت التدقيق والبحث حوله بطريقة مخابراتية عن فتاة تستميله، لكني لم أفلح في بحثي، ورجعت فارغة اليدين.

لاحظت أن حازم يحاول التقرب من اختيار كذلك، ليفيده في مشروعه، لكن إختيار لم يوافق، وكذلك لم يرفض، ترك الأمر معلق دون بت نهائي؛ فزاد تعلق حازم به؛ متمسكا بأمل

مشاركته والعمل معه، كما كان كثير المدح في حق عقل إختيار، وتأكيده أن له مستقبل مبهر، إذا أحسن استغلاله.

نجح الجميع، تخلصت أنا من الدراسة النظامية، أما يمنى فكان مازال أمامها سنوات أخرى؛ حتى التخرج.

انطلقت للحياة العملية، بلا قيد المذاكرة، والامتحانات، أبحث عن عمل في المدينة الشاسعة، التي لم تعد كذلك بعد ما تعودتها.

أصبحت ضيقة، خانقة، عادية بعدما فقدت إثارتها.

كان إختيار كالعادة رفيقي في الدرب الجديد. استطعنا الإلتحاق بعملٍ تابع لشركة سياحية، بعد إجراء إختارٍ بها، كنا نصطحب أفواج السائحين الذين يتحدثون الفرنسية تحديدا.

والتحقنا بتدريب؛ لتعلم مهارات السياحة، والإرشاد السياحي.

اقترب مني حازم بشكل أكبر، أراد أن يجعل لعلاقتنا شكل ومسمى:

- أعرفك منذ وقتٍ كافٍ، وانتظرتك حتى تنهي دراستك، والآن جاء وقت المكاشفة، وتحديد النوايا، ورسم الخطوات بدقة.

أريد خطبتك..

لا أعلم هل فاجئني حازم، أم كنت متوقعة عرضه، الذي جاء باردا، محددا أكثر من اللازم؟

ثم واصل....

- أتركك للتفكير

رغم أني لم أطلب وقتا، لكن حازم دقيق كأنه يسير دوما على خط مستقيم بلا عمق، فليس لديه فرصة أن يحيد عنه أو يميل قليلا.

قال قبل أن يتركني: أن بإمكاننا تحقيق ثروة، وثراء، ينقلنا لمصاف العظماء، بشرط أن نتشارك، أمنحه مالا وفيرا، يمنحني أفكارا، أعمل جنبا إلى جنب معه، ثم ننتظر نتيجة مربحة.

عندي في الحقيقة ممتلكات يمكني حصرها، وبيعها، ومالا وفيرا يمكني صرفه، هل بإمكاني حمل كل شقاء أمي وعمرها، وأمنحه لحازم؟

ولم لا، لديه قطعة أرض جيدة، وأفكار رائعة، وطموح وفير، ورغبة في النجاح.

لديه أيضا هدف، يسعى إليه بقوة كسهم يصيب، لا يخطئ اتجاهه.

لم أرد إخبار إختيار بما دار بين حازم وبيني، فرغم إعجابي بأسلوب حازما العملي، إلا أني تمنيت أن أخبر إختيار أن حازما يحبني.

بـدأ إختيـار فعليـا إجـراءات الالتحـاق بالدراسـات العليـا، يذاكر ويقوم بعمله، ويؤكد أن كلاهما يكمل الآخر.

لـم يكـن العمـل بالقاهـرة محبـب لـي. أحـاول الذهـاب بعيـدا، كما رسمت قبلا.

بمسـاعدة حـازم، اسـتطعت الإلتحـاق بإحـدى الشـركات، وبفرعهـا هنـاك بعيـدا، ولحقنـي إختيـار، الـذي فـي الغالـب كان الإمداد الثاني لمشروع حازم.

هنـاك، كان الهدوء يلفنـي، ويغشـاني، الأجانب من جانـب، الغرباء من جانـب آخـر، حيـاة كالتـي عشـتها قديما فـي طفولـة تعيسـة رغم محاولات مستميتة من أمي لمزج بعض الفرحة فيها.

هنـاك كان الأجانـب والغربـاء وبيـت ملحـق ببيـوت أخـرى علـى شـاكلته، البيـت جميـل، لكنـه كان مخيفـا، وخادمـة قصيـرة ترافقنـي، لا أفهـم منهـا شـيئا، أحـاول التـودد لهـا بـدلا مـن تقربها هي مني.

تعـود أمـي مرهقـة، محملـة بمتاعـب مـن داخلهـا ومحاطـة بالقسـوة، والجحـود، تحتضننـي، تسـألني عـن يومـي، فأخبرهـا أنـه ككل يـوم على مايـرام، ووسـادتي تشـهد عبراتـي، وتحتضـن خوفي ووحدتي.

هناك يذكرني بهناك.

أود الهـروب دائمـا لمـكان بعيـد، لا أعـرف أحـدا ولا يعرفنـي أحـد، أتـذوق الغربـة كمـا تذوقتهـا أمـي، وأتعـذب بالوحـدة والألم كما تعذبت وعانت.

حـازم كان متواجـد دائمـا، ينهـي عملـه بالقاهـرة بالهاتـف، وأحيانـا يسـافر، واختيـار رفيقـي الدائـم، الـذي تعـودت وجـوده ولا أعرف ماذا لو تركني!

كان هـو الآخـر، يهبـط علـى العاصمـة؛ لقضـاء بعـض الأعمـال الخاصة بالدراسة، ومنها لزيارة الأهل.

لـم أفكـر فـي الرجـوع، كان هـذا مكانـي المناسـب، ومـلاذي الآمن.

هاتفتنـي زوجـة أبـي لنفـس السـبب، وبنفـس الكلمـات تقريبـا، أبيك مريض جدا، اشتد عليه الألم.

سـافرت بالطائـرة؛ بالصدفـة وجـدت مكانـا فـي اليـوم التالـي، كنـت بجانبـه بعـد بضعـة سـاعات، كالمـرة السـابقة، وعكـة قلبيـة، لكـن أشـد قـوة، اسـتدعى الأمـر تدخـل وتركيـب دعامـة، خـروج مـن المشـفى، توصيـة بالراحـة، وليتـه يتقاعـد -رغـم أنـه مـازال في سـن العمـل- دفعـت الحسـاب، لكـن سـلوى هـذه المـرة، إنفردت بـي فـي حجـرة الصغيرتيـن، وأمامهما، اشـتكت الأحـوال القاسـية، وأن المرتـب الضئيـل، أصبـح لايكفـي بعـد اقتطـاع أثمـان الأدويـة؛ أعطيتهـا مبلغـا كبيـرا، فنظـرت لـه بعمـق، وكأنهـا لـم تتوقـع أن أستجيب لها.

بعدها كنت أبعث حوالة غير منتظمة؛ بمبلغٍ مناسب.

أحداث ليس لي بها علاقة، لكني مغموسة فيها بقوة القرابة، ويشدني إليها خيط رفيع من صلة الرحم. لا أشعر بأن شيئا ينقصني حين البعد، ولا أتوق شوقا لرؤية أحد حتى أبي.

لم تحدثنِي يمنى منذ فترةٍ طويلة، رأيت اسمها يظهر على شاشة هاتفي، تطايرت شظايا ذكريات الجامعة، منزلنا المشترك، حكاياتنا...

– أتتذكرين نادر؟

رأيت ملامحه القوية تقفز أمام عيني فورا

– نعم أتذكره.

توقعت أن تخبر أنه تعرض لمكروه ليكمل سلسلة الحظ السيئ الذي أصاب عائلته.

خفقت نبضات قلبي حتى قاطعتها يمنى

– أخبرني في آخر زيارة لي للقرية، أنه أصبح أكثر إحباطا، يتعجل السفر،ويلح عليه بشدة

يحتاج عملا أكثر ربحًا، يتمنى ابتعادا عن بيته، وأقاربه، وقطع علاقته بكل ذكرياته.

فكرت بكِ، لوكان بحيز قدرتك، إيجاد عمل، وبوسعك مساعدته؛ فأرجوكِ إفعلي.

– حبيبتي، أظن ذلك بمقدوري، لكن سأوافيكِ بالرد، بأقرب فرصة.

حدثت إختيار بشأنه؛ فتوسطنا نحن الإثنين له لدي مسؤولي الشركة.

اتصلت بيمنى، أخبرتها، حددت لها الموعد، أملت عليَّ رقم هاتفه؛ لأنسق معه التفاصيل.

استقبلته، مرتديا حلة عصرية، مازلت متعلقة بالعينين المتسعتين، والحاجبين الكثيفين. رحبت به عند مدخل الفندق؛ الذي كان ملكا مشتركا لصاحب الشركة وآخر، وهذا الآخر كان يشرك حازم معه بنسبة ضئيلة.

كان إختيار الأنشط بين الموظفين، يقوم بعمل كل شيء، يقترح وينفذ، ودائما ينجح، قراراته صائبة باستمرار.

وكنت أحيانا أساعده، فوق عملي الأساسي.

انضم نادر فورا للفريق، وهو لا ينفك يتحدث عن أحلام وآمال الهجرة.

أهم ما أحببت فيه؛ رغبته المؤكدة، التي لا يصيبها فتور، عن الهروب بعيدا، وإلقاء الماضي بما فيه من ندوب، وجروح، والبحث عن حياة أخرى مختارة تماما، لايؤثر أو يدفع بها أحد.

كان نـادر عكـس حـازم، منطـوي، حزيـن، شـارد، خائـف. إذا ما تحـدث عـن نفسـه، تلجلـج؛ فسـكت كصنـدوق حديـدي مغلـق، وبـلا مفتـاح، كـم يحتـاج مـن الوقـت والجهـد؛ لاسـتخراج مـا بداخله؟

ماذا لو منحت هذا التائه ما أمتلك، وهربت معه؟

أصبـح كل تفكيـري، وصـرت أخطـط كيـف سـنمضي، ومتـى، وأين.

الإثنان متساويان في فرصتهما معي،

حـازم يحتـاج الثـروة؛ ليبنـي بهـا ثـروة، وننفصـل سـويا هنـا، أو أبعد من هنا؛ فالبعد يحتاج تكاليف باهظة.

نـادر يحتاجهـا أيضـا؛ ليطير، ويحـط علـى أرض أخـرى، لا تعلم شيئا عن آلامه.

أيهما أقرب لي؟

المغامر، الطموح، المثابر، الواعي، الدقيق، المنظم

أم، الهادئ، المبعثر، المشتت، الضعيف، المكسور.

أيهما يا اختيار؟

أردت أن أسـأله، أستشـيره. هـو الوحيـد الـذي أثـق بـه فـي هـذه الدنيا، ليتني أقدر على طلب مشورته... ليتني.

ومـازال عـرض حـازم معلقـا، لا هـو يتعجـل الـرد، ولا أنـا توقعت من نفسي هذا التأخير.

لا أعرف لم تلك اللعبة، لمَ بهذه الكيفية أفكر!

وأنـا أسـتطيع التخلـي عـن كل شـيء، وأتركهـم جميعـا، وأبتعـد بمفردي؟!

لمـاذا أعرقـل نفسـي بنفسـي؛ أمتلـك سـنا مناسـبا، ومـالا وفيرا، وعقـلا. لمـاذا أتشـبث بحجـجٍ وأبقـى، أو أنتظـر أحدهـم يرافـق رحلـة غربتـي الجديـدة. ربمـا علـي منـذ هـذه اللحظـة التفكيـر بشـكل آخـر، مختلـف. وفي تلـك اللحظـة بالضبـط هاتفتني سـلوى من هاتفها؛ أن حدثا خطيرا في طريقه؛ ليصب أبي

توقفـت الشـاحنة، وتوقفـت رحلتـي التـي قمـت بهـا داخـل خزانـة ذكرياتـي. نزل عـم أنيـس، ونـزل الـركاب ببـطءٍ؛ كعـادة من يعـود مـن رحلـة، متكاسـل، متـراخٍ، عكـس قدومـه تمامـا فـي نشاط، مرح، وسرعة.

كنـت أنـا العائـد المتسـرع الوحيـد، سـلم عـم أنيـس مفاتيـح شاحنته لآخر كان ينتظره.

وحملـت حقيبتـي الصغيـرة، وأخـذت طريـق يوصلنـي لمدينتـي النائية.

اتصل حازم، لكني لم أرد.

لحقني أنيس العجوز المجهد، أقسم ألا يتركني، إلا هناك في بلدتي والاطمئنان التام عليَّ؛ فالوقت -كما أوضح- متأخر.

وصلنا لموقف السيارات الأجرة، ولجنا باب السيارة التي ينادي صاحبها على ركاب، كان أنيس صامتا، لكنه متيقظا، مشدود الظهر، متشابك الذراعين، مفتوح العينين؛ متأهبا لأي حدث.

اتصل حازم فلم أرد.

- تصور يا عم أنيس!

قلتها وأنا أبتسم، منحرفة قليلا ناحيته، كانت لديَّ رغبة غير مسبوقة في الكلام...

أن حياتي كلها ترحال، منذ ما كنت في السادسة من العمر، أقطع طرقا جيئة، وذهوب، أقابل أشخاصا لا أعرف لماذا أقابلهم.

ثم فترات استقرار، غير مستقرة تماما، أشعر بالاغتراب، وعلاقاتي بأشخاص لا أحب أن أعرفهم.

هربت من الزملاء حتى لا يتحولوا أصدقاء؛ فحددت علاقاتي بكل المحيطين؛ حتى لاتزيد معاناتي؛ بإشفاقهم تارة، وبتطفلهم تارة أخرى.

ثم عدت أبحث من جديد عن الغربة والوحدة كأننا أشقاء، ثم مزيد من الإبتعاد، والهروب

لماذا كل هذا العناء الذي أسعى له بكل طاقتي؟

ينخر هذا السؤال عقلي منذ الأزل.

تُرى هل كنت محقة؟

- لكلٍ ما يعانيه، يا ابنتي. ولكلٍ ما يؤرقه.

أكملت بوحي، وتغافلت كلمات أنيس المقتضبة.

لـمَ لا أتـرك كل هـذا وراء ظهـري، وأغـادر كل شـيء، وأرحـل حتى نهاية الأبد.

ما الذي يعوذني؛ لاتخاذ قراري؟!

لا شيئ يهمني، لاشيء مهم.

أدركنا ظـلام الليـل تحـت جناحـه، والسـيارة تشـقه، في سـرعة، وسكون يبعث على الفزع، لولا وجود عم أنيس بجانبي.

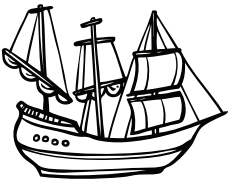

.....

(15)

عودة في منتصف الليل

المدينة عند منتصف الليل تبدو ميتة، الشوارع منهكة، سيارات نائمة في خطوط متعرجة على جانبي الطرق الداخلية، صناديق القمامة تبدو كأشباح عندما تطل منها رأس قطة بعينٍ تلمع في الظلام وعواء الكلاب، يجعل الصدر ينكمش، وبعض المارة في الطرق التي اختفت ملامحها، يمنح بعض الأمل، أن هناك مازال نبض في قلب المدينة، وأنها مازالت على قيد الحياة.

– دقائق يا عم أنيس ونصير أمام المشفى، هل زرت مدينتي هذه من قبل؟

– في الحقيقة؛ لا، لكني سمعت عنها.

الدنيا كلها بلاد عزيزتي.

– حقا الدنيا كلها بلاد، ماذا يفرق بلد عن بلد؟ لماذا نحب بلد، ونكره أخرى، نتمسك بمكان ونرفض آخر؟

لماذا يا عم أنيس؟

- كلٌ حسب ما بداخله، يرى ما خارجة.

ها قد وصلنا.. زاد خفقاني، تضاربت نبضاتي.

دلفت مباشرة من الباب الكبير، سلوى تجلس بجانب أحد أقاربها على الأرجح.

جلس عم أنيس في مواجهتهما، وانطلقت أنا إلى أبي.

كانت الأجهزة مثبتة بجسده الشبه عاري، وهو نائمٌ، يصدر عنه صوت حشرجة عالٍ، جلست بجانبه، وأنا أدرك أن الأمر - في الغالب - خطير.

المستشفتان مختلفتان؛ هناك حين كانت ترقد أمي، تغالب الألم في معركتها الأخيرة معه، التي كانت كل جولاتها فيها بخسارة.

وهنا حيث يرقد أبي يصارع في أشد المعارك هولا.

لو تنهض أمامي الآن؛ فأسألك متى بدأت المعركة الطاحنة، منذ متى وأنت تعاني، ألم تعلم أنك سحبتني لمعركتك، وأعطيتني سيفا، وجعلتني أحارب، حتى قبل أن أتعلم كل المفردات، وها أنا لازلت أقاتل، وأخشى أن أُصرع.

وها أنت تود المغادرة، وتتركني بالساحة، وقد سُلب مني السيف، وأوشكت أن أُهزم.

كأنه كان يقاوم الغرق، أفاق، تنهد بعمق حين أدركني لحْظُه، كأنه كان فاقدا الأمل في اللحاق بي، بدت على ملامحه الراحة، الاستقرار، وشرع يتحدث:

– في الأوقات الأخيرة، يتراءى للمرأ عمله، وأكثر عمل يلح عليه، من قام فيه بظلم آخر.

قد ظلمتكِ.

وظلمتها،

هي الشخص الوحيد، الذي أراه في حلمي، ويقظتي، منذ فترة، ماذا يعني هذا باعتقادك؟

كنتِ معها في آخر أيامها، هل ذكرتني بكرهٍ، وأسى، هل كانت تبغي انتقام؛ فحال الموت بينها وبينه؟

انزلقت الدموع بلا توقف، كان واهن بدرجةٍ قصوى.

واصل بكم أكبر من الوهن..

إن كنت لم أحصل على عفوها، فامنحيني عفوكِ.

كان الضعف يزيد، يلتهم صوته، حركته، ونظرته تدريجيًا.

انسكب الدمع، وتدفق من حيث لا أدري، وجدتهم يدخلون الحجرةِ مذعورين؛ كنت أنتحب وارتفع صوت عويلي دون أن أدري.

عـدل الطبيـب وضـع بعـض الأسـلاك؛ بشـكل روتينـي، أخبـر بضـرورة تجنـب الإنفعـال نهائيـا، وأخـذ يشـرح بطريقـة أقـرب للمسـرحية؛ أنـه بالمستشـفيات الكبيـرة، يحـذر مجـاورة المريـض، ويكتفى، بالنظر إليه من خلال طاقة زجاجية.

انتحيـت بالطبيـب بأحـد زوايـا الردهـة الطويلـة؛ أتفهـم منـه الوضـع الطبـي الدقيـق؛ أخبرنـي أن قلبه بـه متاعـب قديمة، لـم ينتبه لهـا، بالإضافـة لأنـه يدخـن، وكثيـر الإنفعـال، وأن قلبـه فـي الأصل ضعيف، وأنهم قاموا بكل ما بوسعهم، وتركوا باقي الأمر لله.

أمـا أنـا فقـد أدركـت أنـه يحتضـر مـن علامـات كثيـرة. شـعرت بها فقط، لكن بلا دليل مادي.

أردت أن أثنـي أنيـس عـن الإنتظـار معـي، والمكـوث بجانبـي، لكنه أصر.

كان ينظـر لـي فـي أسـى، وكأنـه يـدرك مـا أدركتـه، ويلـوذ داخل صمتـه، وسـلوى رغـم كل مـا يحيـط بنـا، تراقـب عـم أنيـس وتـود كلمات أن تنفجر عند شفتاها «مَن هذا؟!»

رفضـت بالطبـع الذهـاب للبيـت؛ لـم يكـن فـي نيتـي أن أتركـه وحده في الدقائق التي ربما تكون الأخيرة.

قضيـت الليلـة وعـم أنيـس علـى مقاعـد الاسـتراحة حينـا وعنـد مقهى قريب في مواجهة المشفي.

تركتني سلوى وحدي بحجة البنتين.

فـي الصبـاح المبكـر، قـدم للمشـفى خالـي، وزوجتـه، فـور معرفتهم بوصولي.

كان أغلـب كلام نبيلـة معـي عـن ابنهـا أشـرف، وكيـف أنهـم يعانون من مشكلة إيجاد محلا مناسبا يصلح صيدلية.

كعادتهـا نبيلـة لا تهتـم سـوى بمـا يهمهـا ويشـغلها، أردت الصراخ في وجهها» هل هذا وقت ذلك الحديث، أو مكانه؟»

لكنـي احتفظـت بغيظـي داخـل حنايـا صـدري، واكتفيـت بالصمت.

اتصـل حـازم فـرددت هـذه المـرة، لأتخلـص مـن مجاورتـي لنبيلة.

– سـألني عـن مـا جـرى، قصصتـه عليـه باقتضـاب، عـرض المجيئ، فشكرته.

دخـل أشـرف مـن بـاب الردهـة المفتـوح علـى مصراعيـه، لـم يصـادف أنـي رأيتـه منـذ عـدة سـنوات، لكنـه كان كمـا هـو تمامـا، يطل دائما خوف، خجل، واضطراب من عينيه.

كان سـلامه عابـر، عـادي وفاتـر؛ لايناسـب العمـر الذي غبنـا فيه عـن بعضنـا البعـض، ولا الموقـف الـذي كنـا بصـدده كأنـه دُفـع للمجـئ ويبـدو أن أمه قـد لاحظـت؛ فغيـرت دفـة الموقـف، وأخيرا سألت عن صحة والدي.

اتصل اختيار، ثم حازم، ثم نادر؛ كلمات الإطمئنان العادية، حتى أن المكالمات الثلاث كانت تقريبا نفس المعنى، وكانت ردودي متشابهة، لم أحكِ الوضع المرضي، تفصيلا، لم أخبر بأن الأمر خطير، «اكتفيت بالحمد لله، شفاه الله.»

كانت نبيلة تحاوطني بنظراتها، وتتسمع كلامي في الهاتف، وتود لو تسأل من هؤلاء، لكنها تراجعت.

بعدما توغل الصبح وانتشر، حتى أن أشعته كانت بيننا في المشفى، ظهرت سلوى من بعيد، جاءت أخيرا، وملامحها أكثر تألقا وبهاءا؛ يتضح أنها حظيت بليلة نوم هادئة، مريحة.

عانقتها نبيلة بحرارة، وتصنعت إظهار الأسى.

لم أطق الأجواء؛ اصطحبت أنيس، وخرجنا.

أعدت عليه بإلحاح العودة لبلدته، لكنه رفض، لم أكن أعرف لأي مدى سيصمد معي، لكنه على كل حال كان طيبا، كريما فيما فعل.

تناول كل منا فطورا مختلفا؛ وكنت أتخيل سلوى ونبيلة، معا يتساءلان «من ذلك الرجل الذي معها» وتعجزان عن التخمين؛ فتخبرها نبيلة بالثلاثة اللذين هاتفوني، وأيضا تصعب عليهن المعرفة؛ فتبدأ كل واحدةٍ منهن بتلفيق حكاية.

سمح الطبيب بعد استذانه، بالدخول لغرفة أبي، أمسكت سلوى يده، ثم قبلت جبهته، ثم انصرفت.

جلست في مواجهته، أتأمله، أراقب الجهاز المثبت بطرفه أسلاكا تنتهي بصدره.

تُعاد الذكريات بلاترتيب، أتساءل، هل أحبه؟ أجيب مؤنبة عقلي الذي سمح لنفسي أن تسأل مثل ذلك السؤال؟

تمنيت في تلك اللحظة أن يشفى، يعود كما كان طيبعيا معافى، ندمت على تلك السنوات الضائعة التي قضيتها متعمدة التنائي، شعرت بعقارب الزمن تسير بعكس الاتجاه، وأني ربما كنت مخطئة بحقه، بل أنني قد نسيت كل أخطائه، وكأن تصرفاته التي أزعجتني، وضايقتني، وأبكتني لم تحدث، أو ظهرت لي في تلك اللحظة ضئيلة جدا، لا تستلزم أقل انفعال، أردت إيقاظه، نزع الأسلاك من صدره، حمله إلى منزلي، وقضاء باقي العمر معا، يذهب لعمله، يأتي لنتحادث طول الوقت، أحتضنه، أقبله، بلا سبب، وكلما أردت، ننسى سلوى، وابنتيها، وأعيد ترتيب رغباتي، وألتحق بالطب، ويفتخر بي، وأحكي أنا لأصدقائي عن حبه الشديد لي.

صرخت الأجهزة، فأعادتني للواقع، وقطعت حلمي الجميل.

خرجت أنادي الطبيب وتكاد قدمي تلتف حول نفسها، حضر الطبيب الأكبر، وصاحب المشفى، ووراءه ممرضتان، بيدهما جهاز الصدمة، حاولا إنعاش قلبه، مرة، ومرة؛ لكنهما لم تفلحا، وأقر الطبيب بعد أن نكس رأسه أن الروح قد فارقت الجسد، ولا سبيل لاستردادها.

قامت سلوى، ونبيلة بالإستئذان، قالت سلوى وهي مستقرة الملامح سأذهب لأجهز البيت، كأنها كانت ستجهز لاحتفال!

وأسرعت سلوى هي الأخرى: وأنا لن أتركها وحدها.

ظللت وحدي مع خالي، وأشرف، وأنيس.

أعطيت خالي مبلغا، وتركته ينهي الإجراءات، وقدم أنيس خالص مواساته، ووضع نفسه تحت طلبي، ووضع بيدي مصحفا كان في جيبه.

وظل أشرف كما هو لايعلم -على ما يبدو- ماذا يفعل.

رفعت الغطاء المسدل، نظرت نظرة مطولة. جلست أقرأ بعض الآيات. وكنت أسلط النظر لعينيه وبداخلي يقين أنه سيفتحهما لي، ويقوم، ونحقق الحلم سويا.

أثناء التشييع وجدت يد ضحى تربت على كتفي، ووتتناولني بين ذراعيها الحنونين.

مَن الذي أعلمها، كيف وصلت للمكان؟

بعد العصر وانتهاء المراسم، نصحتني سلوى، ونبيلة ولطيفة التي رأيتها من جديد لا أعرف لـمَ! أن أظل ببيت أبي لا أبرحه لثلاثة أيام.

هاهو الموت ذلك المرعب، ينبش ذكراه الأليمة الفائتة، يذكرني بتفاصيل الموتة الأولى التي عاصرتها؛ فعصرتني، يتلاعب

بنبضاتي. لكني أرى الموت من نافذة الحياة راحة لمن غلبهم شقاء أنفسهم وعذابها.

حقا المرة الأولى كنت صغيرة، صدمتي جعلتني أترنح سنوات، هذه المرة اعتقدت أني صرت أقوى، نضجا، فكرا، وثروة، لكن روحي مكدودة؛ كأني مازلت طفلة، ارتطمت بالموت؛ فأرداها مجروحة الروح، صريعة ومشتتة.

كنت بجانب النافذة أتأمل السيدات المتشحات بالسواد، لا آثار للحزن على وجوههن، فقط تميل كل واحدة على من تجاورها، وتثرثر، والأخرى تقوم بذات العمل.

هل باغت الموت قرار السفر؟

هل هذا دليل على صحة قراري؟

لم يعد لي في هذه الحياة أحد، قطعني الموت من شجرتي بموت شجرتي هذه مرتين مرة أمي، ومرة أبي.

فرع وحيد أنا أصبح سهل على الريح الإطاحة به

رأيت سلوى تولول، تنتحب، بلا دمع، وبعضهن يهدئها، ويناولها الماء.

الفتاتان الصغيرتان قابعتان في استكانة، في ركنٍ من الحجرةِ البعيدةِ، نحيفتان، رقيقتان، بائستان.

شعرت بشيء ما بيني وبينهما، كأنهن تشبهاني، رغم أني أشبه أمي جدا.

انشغلت بمراقبتهن، فهن رغم كل شيء تنتميا لفرعي الضعيف المهزوم. حتى دخلت نبيلة تخبرني أن هناك أشخاص جاؤوا من أجلي.

كان اختيار، وحازم، ونادر، قدموا تعازيهم، وجلسوا معي في أحد الأركان على مرأى من النسوة.

خف بكاء سلوى؛ عندما انشغلت بالمشاهدة، انكفأت لطيفة على سلوى، ونبيلة يتهامسن

بالطبع كان الهمس على جرأتي في الإنفراد برجال غرباء.

سمعتهن وأنا أقوم بتوصيل أصدقائي للخارج ليكملوا العزاء بالخيمة المنصوبة أسفل البيت: ولِمَ تخجل، وإن كانت لا تشعر بالخزي عندما تركت بلدها، وراحت تدرس بكلية تافهة بعد رفضها كلية مرموقة هنا، لتكون كما يحلو لها،

وإلا لم لم تستقر بجانب والدها وأهلها، حين أكملت دراسة.

لقد سمعت أنها تعمل هناك مع السائحين،

وما لنا نحن -وخصوصا بناتنا بالسائحين-، وما يصدر منهم، عنهم!!

ولم تتعجبي ألم تفعلها أمها قبلها؟!

ثـم عـادت سـلوى للبـكاء والنشـيج؛ لتحصـل علـى مزيـد مـن التعاطف.

فـي اليـوم التالـي جـاءت يمنـى، وصفيـة، وحضـرت ضحـى لليـوم الثاني، جلسـنا فـي أحـدِ الأركان، والأخريـات يرمقننا، وسـلوى، ونبيلة، ولطيفة، أتين، وصافحن ضيوفي، وغادرن فورا.

واختيـار حضـر للمـرة الثانيـة، وتحـدث معـي حديثـا قصيـرا، عـرض فيـه المسـاعدة، وأنـه سـيظل تحت طلبـي، وقيـده؛ لـن يعود للعمل، إلا معي.

لـم أرد إخبـاره، أنـي لـن أعـود إلـى العمـل، وسأسـلك طريـق آخر.

رأت ضحـى أختـاي مهـا، يـارا، وعانقتهمـا بحنانهـا، وعطفهـا، وأخـذت تلاعبهمـا، وتضحـك معهمـا، وظلـت هكـذا بعـض الوقت، وقد نسيت أنها معنا.

والغريب أن الطفلتين اندمجتا معها تماما.

هـذه السـيدة، لديهـا قـدرة عجيبـة علـى بـث فيـض مـن حنـان يغمر من تحبه.

أصبحنـا وحدنـا وجهـا لوجـه، سـلوى وأنا. لـم أتوقـع هـذا اللقاء، ولـم أتخيـل حدوثـه يومـا. لـم أكـن أعـرف مـاذا أقـول، أو مـاذا أفعل.

بادرتني بالكلام، سألتني ماذا أنتوي؟

لم أتوقع سؤالها، مالها ومالي، ليس لها سلطة على تصرفاتي.

كانت تنظر باتجاهات كثيرة وهي تتحدث؛ كأنها مختلة، ثم أخبرتني....

– صُرف آخر مليم بالبيت. من أين أعيش، وأكمل حياتي؟

المعاش، وإن كان ضئيلا لن يكفي، لن يصرف الآن، ستمر شهور.

أريد....

لم أتركها تكمل، طالما وضحت نيتها.

أخبرتها أن ماتبقى معي بعد ما أنفقته الأيام الماضية، قليل بحيث لا يكفي.

وفي الصباح، ذهبت للبنك، وحصل لها ما أرادت، وأصبحت أكثر لطفا؛ فوعدتها بالمزيد، كل فترة.

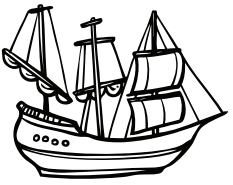

.....

(16)

أختـــــان

لا أدري، هـل غريـب أن يصبـح لـي أختيـن حقيقيتين، أم هو شـيء لطيـف؟ لـم أعرفهمـا إلا مـن خـلال كلمـات والـدي الرافضـة الغاضبـة، والمسـتاءة عنهـن، وهـذا مـا جعلنـي أشـفق عليهـن، وربما أحبهن.

اسـتيقظت، وجـدت نفسـي علـى سـرير وبجانبـي مهـا ويـارا، تذكرت أحداث الليلة الماضية، لم أتذكر أني نمت بجوارهما.

أفقـت، تجولـت بالبيـت، لـم أعثر علـى سـلوى؛ أخـذت أحضر فطورا.. شعرت بالصغيرتين ورائي، سألتهما

– لماذا نمتما بجواري ليلة أمس تاركات سريركما؟

– قالت أمي: لابد أن تقتربا من أختكما.

تعجبت!

ساعداتاني في إعداد الوجبة، سألتهما عن أمكنة الأشياء، وأخيرا جلسنا على المائدة، أردت ملاطفهما لكني لم أقدر.

كنت ألاحظهما تختلسان النظر لبعضهما، تضحكا بصوتٍ مكتوم، تعبثا بالخبز، دون أكله، وتتناوشان قليلا.

هل لا تدريان ما حدث لوالدهما؟

هل تحسدان على صغرهما وعدم وعيهما أم وجب الإشفاق عليهما؟

لكن لمَ لم أرحل بعد فوات الثلاثة أيام من ذلك البيت؟

لماذا طال مكوثي يوم آخر؟ هل بسبب صورة أبي المعلقة على الجدار، أم روحه الكامنة في هاتين الصغيرتين؟

صوت مفتاح سلوى بالباب، جعلني أتساءل، هل من حقي أن أسألها أين كانت، مع من، ولماذا؟

انتظرتها تجيب على مالم أسأله، لكنها ألقت سلاما عابرا، بلا التفات لي، أوحتي لابنتيها.

لم تكن هناك أي مواضيع، أو حوارات، أو قصص مشتركة؛

فآثرت جمع متعلقاتي البسيطة، وأخرج من المنزل، ثم أفكر في ترتيب ما أنتوي عمله.

باغتتني: أجلي الذهاب حتى تنتهي ليلة الخميس، سيأتي الناس، ويجددون المواساة.

نبيلة، ولطيفة من أوائل القادمات، ثم حضرت النساء، فرادي، ومجموعات؛ حتى امتلأ البيت بالسواد، وزادت الضجة، كنت أستطيع سماع حكايات كل واحدة في أذن الأخرى، وهناك من تنادي على أخرى بصوت عال لتناولها ماءً، وأخرى تطلب قهوة لشكوتها من الصداع، فتخبرها الأخرى بوصفة لعلاجه، وتدخل هذه في الكلام؛ فتقوم إحداهن بتعلية صوت المسجل الذي ينطلق منه صوت الشيخ يرتل القرآن، يجاهد ليسمعوا كأنه في معركة معهن.

وتقف أخرى تلقي موعظة؛ فسرعان ما ينتبهوا لها، وسرعان ما ينصرفوا عنها؛ لأحاديثهم الجانبية التي لا تنتهي.

وأنا بين لطيفة التي كلما رأتني تقص علي قصة مأساوية جديدة طرأت في حياتها، ونبيلة التي لا تنفك تخبر عن نبوغ ابنها تارة، وتارة عن حظه العثر.

قررت إنقاذ نفسي، من تلك المائدة النسوية، التي كادت تصبني بالغثيان. لاحظت أن نبيلة تحوم حولي، ثم تكلمت متظاهرة أنها تقدم لي فائدة...

إن أثمان العقارات والأراضي في زيادة مطردة، فما نكاد نسمع رقما، يتضاعف لنفس السلعة في أيام. وما تركته والدتك - رحمها الله - شمله التضاعف والزيادة والكثرة، خاصة بعد إعادة تعيين حدود المدينة بعد السماح للأراضي الزراعية

المهجـورة الدخـول حيـز المدينـة والبنـاء عليهـا. صـارت تبـاع بالمتـر، والمتـر بـآلاف، ثـم اقتربـت مـن أذنـي، وتحـول صوتهـا لفحيـح، ورزاز فمهـا كسـم، وكلماتهـا كوسوسـة إنـك صاحبـة ملايين إن أردتِ، والسماسرة ينتظرون، وأولهم أنا.

لا أعلـم لـمَ ألـح علـيَّ الضحـك، فلـم يعيقنـي عائـق، فبـدوت أمامهـا كمجنـون يطـارد فراشـة لا وجـود لهـا، علـى زهرة مرسـومة علـى حائـط، فـي حيـن يحـاوره عالـم منطـق ويناقشـه فـي جدليـة مستعصية.

تحولـت نبيلـة لسمسـار أراض، وتريدنـي سـلعة تبيعهـا. بعد كل هـذه السـنوات لـم تتعلـم أنـي لا أتأثـر بخطـط الشـياطين، ولا أفعل إلا بدافع من عقلي.

أخبر البـاب أن شـخصا خلفـه، يريـد الإنضمـام للمائـدة، فكانت ضحى.

مـا أن لمحتهـا نبيلـة؛ قامـت مسـرعة، تقبلهـا، وتعانقهـا فـي ود غريب.

التقفتها، وجريت بها، كهدية تخشى أن يفوز بها غيرها.

تلفتـت، سـألت عـن أختـاي، طلبتهمـا لهـا، فأخرجـت كيسـا ممتلـئ بكافـة أنـواع الحلـوى تقريبـا، مـن حقيبتهـا، وناولتهمـا إياه؛ فتبدلـت ملامحهمـا تمامـا، وضحكتـا، وقبلاهـا، وعانقاهـا، ثـم إنزويتا تقتسما الغنيمة.

كان لابد من تفريغ ما امتلأت به نفسي في حجر أحد، لم تكن إلا هي، ومن غير ضحى أستطيع أن أسلمه مفتاح قلبي دون خوف من سرقته، أو نقل محتوياته....

- لم أعد أطيق، العيش هنا، لا بالبيت، ولا بالبلدة كلها.

- هذا طبيعي، الذكرى المؤلمة تحاوطكِ، وما مررتِ به ليس سهلا.

- لكني أيضا، لا أطيق الذهاب حيث مقرالعمل هناك، الذكرى تطولني أيضا.

- إذن تعالي عندنا، اعتبريه استجمام.

كانت ضحى جادة فيما عرضت، وتنتظر ردي.

- الأمر ليس وعكة نفسية تزول بالاستجمام، أنا أهفو لمكانٍ جديد، بعيد، أغسل فيه الماضي، مكان أولد فيه من البداية

لم تفهمني ضحى، ولم أحب التوضيح، وربما قصدته، لم يكن فكري منظم، ولا أفكاري محددة.

أرادت ضحى الإنصراف، قامت تتأهب له، ثم التفتت فجأة، كأنها تذكرت شيء بعد نسيان:

- ألم يخبرك اختيار بشيء؟

- لا.

- ربما كان الوقت غير مناسبا؛ لقد أرسلت له الجامعة خطاب بتعيينه.

كان خبرا بالنسبة لي مفرح جدا؛ فهتفت...

- إنه يستحق، إنه مجتهد، مثابر، مواظب، ذكي، ويستطيع النجاح في أي مكان، ومجال.

تهلل وجه السيدة فزاد إشراقا، وبشاشة.

- هل كل هذه الصفات في ولدي!

واضح أنك تكنين له مودة كبيرة.

- كل ماقلته بحقه مضبوط، فهو مثال لقوة العقل ورجاحته.

- يمكنني البقاء مزيد من الوقت؛ لأسمع مزيد من المديح في ابني حبيبي.

قالتها كمزحة، وهي تسير بطريقها للخارج، لكني استوقفتها؛ فقد تذكرت شيء أردت توضيحه منها:

- هل هناك علاقة ما بين نبيلة، وبينكِ؟

ضحكت بسخرية، وقالت بعجالة، وهي تسير نحو الباب...

- إتصلت بعمك محمود (والد اختيار) هي وزوجها وطلبا منه البحث في القرية عن محل يصلح صيدلية لأشرف ابن خالك.

وفعلا اهتم محمود، وبحث، ووجد، ثم أخبرهما، وعاينوا الكان وأعجبهم، وقرروا شراؤه، ثم وجدوا أنهم لايملكون ثمنه بالإضافة لتجهيزه، وشراء، أكمام الأدوية المطلوبة؛ فعرض خالك على عمك محمود، مشاركة أشرف؛ مؤكدا أنه مشروع تجاري مربح؛ فوافق محمود؛ فهو بالفعل تجارة مربحة.

اتصل حازم كما يتصل، كل يوم، في موعدٍ محدد، كانت كل مرة الكلمات نفسها تقريبا.

ماذا أردته أن يقول؟ هل أردته يخبرني أنه يشتاق إليَّ ؟

هل كنت أتمنى أن يغمرني بكلام معسول خيالي، خرافي؟

لقد كان من البداية يسير وفق خطة، قابلني ببيت عمته، تعرف عليَّ، انجذبت له، صادقني، غرس نفسه في حياتي، ثم أخبرني أنه يمكننا الإرتباط، ومزج أحلامنا شريطة أن أمنحه كل ما أمتلك، أحقق له حلمه بعد أن أتبناه ويصبح حلمي بالقوة.

لم يسألني عن حلمي، عن نفسي، ما أريد، وأتمنى. لماذا لم يحاول الاقتراب من حلمي، ويحققه هو معي؟

سأعرض عليه فكرتي، إن قبلها، تزوجته فورا، سافرت معه، وحاولت صنع عائلة أكن أنا شجرتها، وأحافظ على فروعي، وأجد من أنتمي له حقيقة وينتمي لي.

نادر، لم يخبرني بما بداخله، ولا أراه يطل من عينيه، أعلم أن مثله لا يفكر إلا في مشكلته، وأراني نموذجا مناسبا له، أراه

وأنـا متكافئيـن، كلانـا يصطحـب مـاض أليـم، يسـعى بـكل طاقتـه الفرار منه، كلانا وحيد.

هـو يحتـاج المـال ليسـرع بالفـرار، وأنـا لاأمانـع أن أرافقـه وفـق شـروطي، وأبنـي فـي مـلاذي الجديـد حيـاة هـي حاضـر فقـط بـلا ماض موجع.

سـأخبر حـازم، وأخبـر نـادر، كل علـى حـدى، مـن سـيوافق خطتي، أهرب به، ومعه.

وإلا سـألوذ وحـدي بالفـرار، وأواجه المجهـول وحدي، سـتتوقف رحلاتي الداخلية، وأستقر أخيرا.

سـأخبر اختيـار، ونحـن فـي طريقنا، بآخـر رحلـة لنا معـا، وكل منـا يجمـع متعلقاتـه، ونعـود كل منـا فـي اتجـاه، لـن يكـون لنـا طريق رجوع واحد، سنفترق، مابقي من الأبد.

– أقسمت ألا تعود إلا معي، وحدث ما أقسمت عليه.

– لـم أكـن لأتـركك بعـد كل هـذه الرحلـة الطويلـة التي كنـا فيها الأقرب لبعضنا البعض.

– لا أصـدق أن فـات شـهرا علـى ذلـك الإتصـال الـذي جعلنـي أسرع في المغادرة، وأعود لمدينتي في عمق الليل.

– عودة موفقة، عملك ينتظرك

– لكني لا أنتظره يا اختيار. سوف أتركه.

– لـم أتوقعهـا منـك أبـدا، هـل هنـاك عمـل أفضـل بشـركة أخرى؟

– لا.. لكن ألست مغادرا أنت أيضا؟

– لم تقولين هذا؟

– أخبرتني أمك، أن الجامعة، أرسلت لك.

– وما علاقة هذا بعملي.

– مؤكد، ستغادر للتعيين.

سكت ساعتها اختيار، ولم يتكلم

وقضينا الطريق أنظر من نافذتي، ويتصنع هو النوم.

وبعـد وصولنـا، قـررت التحـدث إلـى حـازم الـذي كان متواجدا أولا، وودت لـو عرضت عرضـي عليهما في نفـس الوقـت وعلى مرأى من كليهما، كأنه مزاد، واختيار يدير المزاد، ويمنحني للفائز.

فكـرة مريبـة، بشـعة، لـذا قـررت تأجيلهـا للمسـاء، حيـث اتصل حـازم، يخبرنـي أنـه يريـد مواعدتـي عنـد المطعـم، وتنـاول العشـاء وحدنا، توقيت، ومكان مناسبين.

خبط خفيف على الباب وأنا أشرع في التجهيز للخروج.

– أهلا اختيار..

لم يكن كعادته، به شيء مختلف، لا أدركه.

جلس دون أن أطلب منه؛ فأدركت أن ثمة حدث مهم.

- لن أقبل التعيين بالجامعة

- لمَ

- إن أردتِ ذلك.

- وما شأني؟!

- ألم تخبريني أنكِ لن تستمري في العمل هنا

- نعم...!

- إذن ماذا تنوين؟

ساعتها، تداخلت أفكاري في بعضها، ولم تصلح لصنع فكرة محددة عما يقصد اختيار؛ ساعتها فقط فكرت في إخباره، إنه دائما سندي ومعيني ويهمني معرفة رأيه.

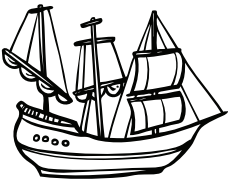

(17)

نيـــة، وقـــرار

– لقـد قررت السـفر، ولمـكان بعيـد، للدراسـة، للعمل، تسـتطيع القول أنها هجرة، وعلى الأرجح لن أعود.

إلى هنـا، ولـم أكمـل، لـم أطلعه علـى مـا أنتويـه بشـأن عروضي السـخية علـى نـادر وحـازم الـذي كان لـه موعـد علـى وشـك الوقوع. في الحقيقة خجلت، تذكرت فكرة المزاد، فسكت.

أن يعلم بالنتيجة في حينها أفضل، النتيجة التي لا أعلمها.

ولا أعرف مَن منهما سيسافر معي، أم سأسافر وحدي.

هـب اختيـار مـن مكانـه، تخلـى هـدوءه عنـه، انفجـر فمـه مستنكرا:

– تسافرين! تهاجرين للأبد! وأنا!

التفت إليه مندهشة، وتركته يكمل...

ألـم تفكـري طـوال تلـك السـنوات، ألـم يصـادف عقلك سـؤال واحـد عنـي، وكيـف رافقتـكِ كل هـذا الزمـن، ولمـاذا تخليـت عـن بلدتـي، وانطلقـت وراءك، رغـم أنـك لـم تملـك هـدف يهدينـي للسير وراءه

تحملت تخبطك، نزقك، وكلي أمل أن تتفهمي.

كيـف لم تـدركِ أنـكِ كنـت لـي الحلـم الوحيد، الـذي في سـبيله يمكننـي التخلـي عـن كل الأحـلام الأخـرى؛ لأن أي أمنيـة تصغـر مقابلكِ أنتِ.

تركنـي اختيـار، غادرنـي فجـأة، كان هنـاك كلام آخـر يريـد أن يكملـه، لكنـه لـم يسـتطع، فقـد النطـق أمـام بلاهتـي، غبائـي، وجنوني.

لـم أكـن أتوقـع مـا سـمعت، ولـم أفكـر، هـل خطـأي هـذا، أم خطـأه، لـم يخبرنـي مـن قبـل، ولـم يلمـح، لـم يعـطِ أدنـى إشـارة، لكن ألـم يكفيني كل مـا قـام بـه مـن أجلـي؟ إن كل مواقـف حياتي كان بطلهـا إختيـار، كان يقتـرب منـي برفـق، وإصـرار، لـم يتركنـي وحـدي عنـد إختيـاري الغريـب للدراسـة، كلمـا تلفـت خائفـة وجدتـه؛ فشـعرت بالأمـان. رغـم كل هـذا، لا يصلـح اختيـار، هـو رافض للسـفر، وحيـد أبويه، ينتظـران منـه الكثيـر، لا يمكـن تركهما، ولن أسمح بذلك.

لديه وظيفة نادرة، يجب أن يلتحق بها.

أعلـم أن ماعلمتـه الآن يصعـب رفضـه، إنه الحـب غير المشـروط، إنه الموافقة بأي عيوب، إنه التضحية بلا حد.

كيـف لـم أنتبـه لهـذا الحـب الـذي أحاطنـي؟ ورحـت أبحـث عن بدائله.

فـي المقهـى الكبيـر، وسـط الضجيـج الـذي كنـت أحتاجـه؛ ليعـادل ضجيـج عقلـي، وحربي معـه، جلسـت أمـام حـازم، لا أعلم مـن أي نقطـةٍ أبـدأ، هـل يمكننـي تقديـم اقتراحـي بعـد مـا سـمعت من إختيار

خفتـت الضجـة، رغـم اسـتمرارها، لـم أشـعر بهـا، تغلـب عليها صخـب عقلـي المـدوي، لـم أعـد أسـمع، أو أرى اختفى حـازم من أمامـي رغـم وجـوده وثباتـه فـي مكانـه، تناولـت حقيبتـي، انطلقـت عائـدة، فـي الطريـق المظلـم، تمنيـت فقـدان الذاكـرة، لكنهـا كانـت أشـد قـوة، وبأسـا مـن أي وقـتٍ مضـى، تـدور بشـريطها المعتـاد تثقب جدار قلبي.

فـي الصبـاح، قمـت متثاقلـة، غيـرت ملابـس الأمـس التـي نمت بهـا، ووجـع بـكل حنايـا جسـدي؛ مـن كثـرة الكوابيـس التـي اخترقت ليلتي.

كان هنـاك اعتـذار مدينـة بـه لإختيـار، لا أعـرف إن كان يكفـي أم لا، لكنـي سـأقدمه له مـع تبريـر واجـب عـن غبائـي، وغيبتـي طوال تلك السنوات.

لـم يعـد قائمـا أن أنفـذ مـا خططـت لـه مـع نـادر أو حـازم، بعـد ما قاله إختيار.

أضحكنـي حـد البـكاء بحثـي المضنـي عـن مـن لـم يقـدم لـي حتى بعض حب، ولم يرنِ أصلا.

تُرى! هل أنقذني إختيار؟ في الوقت المناسب تماما؟

سأسلك دربي وحدي، وأنتظر مصيري في آخره.

أخبرني الحارس، أن إختيار رحل منذ خمس ساعات.

منـذ الفجـر وهـو فـي طريـق للعـودة، طريقـه الصحيـح، رافضـا اعتذاري، وتبريري.

علي ترتيب أوراقي، التي بعثرها لي إختيار.

اتصال من سلوى....

- عليـك الحضـور؛ أمـر هـام، لـم أكـن أعلـم بسـفرك، لـمَ لـم تخبريني، لقـد أجلـت الـكلام معـك، منـذ حدثـت الوفـاة، لكني لم أكـن أعلـم أنـك سـتفاجئيني بسـفرك لمحـل عملـك البعيـد، وربمـا لا تعوديـن قريبـا، والـكلام الـذي عنـدي مهـم، لـن يصلـح عبـر الأسلاك.

لـم أسـتطع التنبـؤ بمـا أرادت سـلوى، مؤكـد هـو مطلـب أخطـر مـن طلـب المـال، فأنا مـن هنـا يمكننـي إرسـاله، وقـد أعطيتهـا آخر مرة، مبلغا يكفيها جدا.

يبدو أن مشاكلها، ومطالبها، ومتاعبها لن تنتهي، إنها تشدني لعالم أكرهه، وذكرى مقيتة، ووجع مؤلم.

حاولت طوال أيام سبعة، أنهاء ما يتعلق بي، وأجمع ماتبقى لرحيل نهائي.

بشكل منطقي، ودعت الجميع، اعتذرت لحازم دون شروح. قدمت حجزي المسبق بالطائرة المسافرة للقاهرة ومنها لمسقط رأسي.

- لن أستطيع تحمل مسؤولية أختاكي.

- أنهما ابنتيكِ

- أنا صغيرة، بلغت توا الثامنة والثلاثين، وكان أبوك يكبرني بما يقترب من العشرين سنة.

- وما دخلي أنا بقصة زواجك، لمَ وافقتِ على من يكبركِ؟!

- وافق أبي، أقنعني، أرغمني، المهم أنه حصل وتزوجته.

- ولمَ تحمليني أخطاءك، وأبيكِ؟

- لأنه ليس أمامي غيرك، ليس هناك عم، أو عمة، أوقريب موثوق به.

- ماذا تريدين إذن؟

- سأتزوج. ولن يقبل الزوج بالطبع مسؤولية الصغيرتين، وأمي ضعيفة النظر، والصحة؛ لن تقوى عليهما، خاصة عندما تشبان. أنتِ إذن أولى الناس بهما.

رحمة الله على الأموات.

الذين لم يحسنوا الاختيار، وتركوا الأحياء يدفعون ثمن أخطائهم الفادحة، فلتقم يا أبي، وترى من دمرت حياتك معنا وارتميت على عتبتها، تتصور أنها قادرة على تغيير مصيرك المحتوم.

يمكنني أن أذهب بلا رجعة، ولا حتى أدفع مليما واحدا لتلك المرأة.

ماذا عساها فاعلة؟

مالي وابنتيها، اللتين لا أعرفهما، ولم أراهما سوى مراتٍ معدودة، مجبرة هي على التصدي لمشكلتها، ويذهب الجميع للجحيم وأنجو أنا منه، وأغادر.

ارتميت في حضنها، ألقي بكل ما يؤرقني في خضمه الحاني، فمثل ماقالت سلوى، لا أملك عم، أو عمة.

فكرت مرارا، بعد ما حدث بيني وبين إختيار، إن من الصعب لي والمخجل أن أتواجه معها، فهو بالتأكيد أخبرها بما حدث بيننا، فمن لديه أم مثل ضحى، لايملك إلا أن يحكي لها، ويرمي مشاكله في حجرها. ربما يغير، أو يؤثر تصرفي مع ابنها على استقبالها لي، لكنها، وكأنها لا تعلم شيئا، قابلتني ككل مرة، واستقبلت همومي، وشاركتني إياها، واغتمت لحال الصغيرتين اللتين ترفضهما أمهما.

حذرتني من التخلي عنهن:

– إنهـن بنـات، لابـد من تربـة صالحـة تنميـان فيهـا، ومنـاخ جيد تصحـان بـه، ومياه نظيفـة تترعرعـن بسـببها، ولـن يتوفـر لهمـا هذا مـع تلـك الأم وذلـك الـزوج، ويصبـح للإعوجـاج فرصـة كبيـرة، والإنحراف عن المستقيم وارد؛ وتندمين أنت ما بقي من عمرك.

– لكن مـن سـيفعل كل هـذا، لقـد انتويت السـفر، وخلال أشـهر من نهاية الإجراءات سأكون في عالم غير.

تقبلـت السـيدة الكريمـة كلماتـي، وهـي تعلـم معناهـا، وتأثيرهـا علـى ولدهـا، ورغـم هـذا، ابتسـمت كعادتهـا، وكاد الدمـع يترقرق، لولا أنها تظاهرت بالجلد فجأة، وكأنها ارتدت ثوبا آخر:

– أنـا أتكفـل برعايتهمـا، تعلمين أمنيتـي الأزليـة، والتـي أراد الله تحقيقها من خلال مها، ويارا.

أدهشـتني ضحـى، كيـف تتخـذ قـرارا، مصيريا، هكـذا، ببسـاطة، إن كنت أنا قد فجعني مجرد التفكير فيه!

– هـذا لطف معهـود منـكِ، لكـن لا يمكننـي إزعاجك، أو اسـتغلال عاطفتك، وعطفك وإلقاء مشكلتي المستعصية في جوفك هكذا.

– إنـك سـتحققين أمنيـة طالمـا حلمـت بهـا، ولـن يضيرنـي فـي الأمـر شـيئا، أنـا وحيـدة تقريبـا، لا أجـد مـا أعملـه طـول النهـار، والليل، –إلا من مناوشات عمك محمود طبعا–

فسوف تكونا خير أنيس لي، اذهبي، وتعالي بهما ولا ترددي.

خرجت من بيتها، وقد تركت مأساتي لديها، تخففت مما أرقني.

إن ضحى لابد وأن تكون محاضرة في التنمية البشرية، بل أنها أعظم من كل المحاضرين.

كنت على عتبة بيتها مازلت؛ فقطعت سعادتي بها، وقالت بمكرٍ مصطنع؛ فهي أبعد من يكون عن الخبث:

يمكنكِ أنت أيضا أن تأتي معهن، لامانع عندي من تبنيكِ، ورعايتك.

التفت لها باسمة، ولم أرد.

كان طلب صريح منها، أعرف أنها تعلم كل شيء عن قلب إختيار حتى قبل أن أعرف أنا.

لاحظت أن إختيار غير موجود بالدار، ترى أين يكون؟ خجلت أن أسأل، وضحى لم تخبرني.

صادفني قادم عند أول الطريق، بعد عدة خطوات من بيتهم، فوجئ بوجودي، ولم يستطع ذكاؤه التخمين، والاستنباط.

تحدث كأن شيئا لم يكن...

-واضح أنك عائدة

-نعم

– أنـا أيضـا، لـدي بعـض الأعمـال، لأتمهـا هنـاك بالمدينـة، انتظـري حتـى أحضـر بعـض النقـود، وأغيـر ملابسـي، ثـم نذهـب سويا.

تركنـي، كنـت مسـرورة، وكان لايبـدو عليـه أثـر لما حـدث هناك بيننا، كان بإمكانه تجاهلي، لكنه كان أيضا يبدو سعيد بلقائي.

دائما إختيار وأمه حالة فريدة من بين جميع من عرفتهم.

لمحـت أشـرف يقـود سـيارة قديمـة، متهالكـة، يخيـل لـي أنـه يدفعهـا لا يقودهـا، مـر مـن أمامـي، أشـار لـي غيـر عابـئ أو مهتـم، يبـدو لمـن لا يعرفـه أبلـه، لا صيدلـي. لـو علمـت أمـه تجاهلـه لوجـودي، أو عـدم الإلحـاح لمعرفـة سـبب تواجـدي عنـد ضحـى؛ لعنفته، وربما صفعته.

رأيتـه تغيـر، أصبـح يحمل سـنا أكبـر منـه، ربما لأنـه يحمـل حلما غير حلمـة، مجبـر علـى تنفيـذه، مسـكين ذلـك الفتـى الـذي تحركه أمـه دون مراعـاة لهـواه، تسـوقه ليحقـق فوز فـي سـباقٍ غير مسـتعد له.

أول مـرة أنـا وهـو فقـط بجانـب بعضنـا، بمفردنـا فـي سـيارة يقودها بنفسه.

لا أسـتطيع نكـران فرحتـي، والتـي أفكـر فـي تبريـر لهـا، فـلا أجد.

طول الفترة التي عرفته فيها، كنت معجبة به، كان دوما فريدا مختلفا.

أعزي هذا لتربيته السليمة، ونشأته المعتدلة، وحب أبويه لبعضهما.

حاولت التحدث معه بشأن المرة الفائتة، لكني لم أؤت شجاعة.

تذكرت معه أصحابنا السابقين، لكنه حدجني بنظرة قاسية، حين ذكرت اسمي حازم، نادر؛ فسكت.

- تفضلي،

ماهذا؟ لم أرَ هذا المكان من قبل!

- تغيرت المدينة كثيرا واتسعت، واختلفت عن آخر مرة سرنا فيها معا، حول محل عم وصفي.

على عتبة المقهى الكبير أمسك إختيار يدي.

لأول مرة طوال هذه السنوات يلمس يدي. ولم أتخيلها تحدث.

كان يجوب بي أركان المكان في تأن، ورغم وجود طاولات كثيرة فارغة، إلا أنه اختار ركنا بعيدا منزويا.

وجلسنا متقابلين...

قال وقد أطلق العنان للذكريات...

– منذ أن رأيتك هناك بجانب الخيمة، في الإحتفال، وأنا أدرك أنك غير الجميع. أأخبرك بسر، لقد كنت أتعقبك؛ لأني في الحقيقة أعجبت بك منذ اليوم الأول لالتحاقي بالفصل، ولأني كما تعلمين كنت جديد ا على الصف، وخجولا، لم أقدر على بدء أي حوار، فكنت أراقبك من بعيد؛ حتى سنحت لي الفرصة، ذلك اليوم.

لم تفارقني بعدها السعادة أبدا. طالما كنت دائما بجانبك.

كنت نجمة براقة، وكنت شديد التعلق بك، وكلما كبرت ازداد تعلقي وكنت أتوقع العكس، كنت أشعر وأنا قريب منك بأمل، فرحة، طاقة سعادة غريبة لم أحسها مع أحد.

لم أحزن إلا مرة واحدة، عندما أخبرتني برغبتك الغير متوقعة في دراسة الآثار، ساعتها أدركت أن هناك احتمال لابتعادنا، فلم أحتمله. ورغم اندهاشك من اختياري، إلا أنك لم تتوصلي للدافع الحقيقي لسيري في اتجاهك، والدوران حولك بالجاذبية التي ترغم الأرض للدوران حول الشمس، دون الملل، الكلل أو الاعتراض. وتوقعت ساعتها أن تفهمي، وتدركي، ولكِ أن تتخيلي إحباطي حين تقبلتِ أمر التحاقي بكلية غير الهندسة، بشكل عادي، وكأن ركضي خلف حلمكِ، لم يرغم عقلك، ولم يشعر قلبكِ ولا ثانية على السؤال المنطقي لماذا إختيار يفعل كل هذا؟ ربما لو سألتِه لنفسك، لاستطعتِ الوصول للإجابة الوحيدة له، وهي أني أحبكِ.

تحملت ما تحملت وأنا أراك تفكرين في هذا، ذاك، وكأني غير موجود. لم تعلمِ مدي خوفي أن تضيعي أو أفقدك، وأثر ذلك عليَّ.

أحببتك طوال الوقت الماضي، ومازلت، ودافعت عن حبي بأغلى ما أملك، وكنت سعيد بما قدمت.

توقف إختيار عن الكلام، نظر لي منتظرا الرد، لكني لم أكن أملك كلمة واحدة تستحق أن أنطقها، ماذا أقول، وقد خذلته مرات، ولم أقدر تضحياته، هل لم أفهمه يوما، أم تعمدت قصور الفهم، كنت طوال عمري السابق أتعمد الإبتعاد في حين كان هو الأقرب.

إنه يقدم الحب مرة أخرى، وربما تكون الأخيرة.

– لو أنا فتاة أخرى غيري؛ لكانت سعادتي توصلني لفوق السحاب، ومن عاقلة ترفض ذلك الكم اللانهائي من الحب؟

لكني أحمل تراكيب من عقدٍ وغربة. لا يقدر من حيا حياة مثالية أن يفهمها، لن أحدثك عن وحدتي المبكرة، فأنت تعلم التفاصيل، ولن أخبرك بأيام أليمة، موجعة، وذكريات خائفة، زينتها بعض من سعادة تبخرت بموت أمي، وأصبحت عند استرجاعها مفجعة.

أنت ترى فتاة جميلة، تراها مختلفة، ذات جاذبية، لكن تأكد أنك لو اقتربت أكثر سوف تكتشف أن ما أعجبك وهما كبيرا، أشفق عليك أن تحياه.

فـي حجـرة مكتبتـي لـم أشـعر بالراحـة المعتـادة، كانـت أغلفـة الكتـب تنظـر لـي بوحشـية، ورأيتهـا كمـا لـو كانـت تبغـي الانقضاض علي.

بحثـت بهمجيـة لـم أنتهجهـا مـع كتبـي أبـدا، عـن دفتـري الـذي كان مجـاورا لكتبي التـي اسـتغنيت بها عـن الجميـع، اشـتريته؛ لكتابة مذكراتـي، لكنـي لـم أخـط كلمـة واحـدة علـى أسـطره، لم أسـتطع الكتابة يوما، رغم كل ما قرأت.

رسـمت، طفـلا نحيفا، طويـلا، ذا جبهـة عريضـة، وعيـون زرقاء، ويرتدي نظارة.

قلبت الصفحة، كتبت في منتصفها ياسمين تحب.

لكني بعدها أنشأت أكمل رسم عشوائي.

جـرس الهاتـف فـي حقيبتـي لايكـف، يقطـع تفكيـري، ويوقـع قلمي من يدي، لم أستطع تكملة رسم الغلام البائس، الحزين.

علـى الشاشـة ظهـر لـي رقمهـا، ومـن غيرهـا يمكـن أن يقطـع خلوتي.

- سلوى تريد الزواج...

- أعرف، لقد أخبرتني (أول مرة تمنحني خبرا قديما)

- مؤكـد قالـت لـك؛ لتتخلـص مـن الطفلتيـن. لكـن هـل تعلمي من ستتزوج؟

– مـا يهمنـي فـي هـذا؟! كان صبـري قـد نفـذ بالفعـل، وحـل الغضب محله.

– إنـه، ابـن عمهـا، خطيبهـا السـابق، أو حبيبهـا، الـذي رفضـه أبوهـا ليزوجهـا لأبيـكِ. لـم تحتـرم ذكـرى الرجـل، لـم تحتـرم التقاليد، ترمي طفلتين، دون الإكتراث لمصيرهما.....

قطعـتُ الإتصـال علـى كلماتهـا؛ فقطعتُ سـيل كلامهـا وأرحت أذني.

مـاذا تريـد نبيلـة أن تقـول، ومـا أرادتنـي أن أفهـم، هـل كانـت تحبـه وهـي زوجـة لأبـي؟ هـل لـم تكتـرث لمرضـه، وموتـه، هـل أسعدها موته، هل انتظرته؟

هـل علـم أبـي أو شـعر، هـل كان ذلـك أحـد أسـباب تدهـور صحته؟

أشـعلت نبيلـة بعقلـي الإسـتفهامات السـرطانية، كمـا أشـعلت الذكرى المؤلمة بقلبي.

كان بإمكانـي طلـب المزيـد مـن التفاصيـل عـن سـلوى، مـن نبيلـة، والتأكـد مـن صحتهـا مـن غيرهـا، ويمكننـي مواجهـة سـلوى ذاتهـا، لكنـي أضعـف مـن معرفـة الحقيقـة. أخـاف منهـا، الحقيقـة قاسية لا تعرف الرحمة، ولا تملك قلبا.

كان الأفضـل مـن الطـرق علـى بـاب الماضـي وقلقـه، أن أبحث عن المستقبل وأنقذه.

أول مـرة كنـت عنـد هـذا البـاب، وأبـي يفتحـه سـعيدا، يعرفنـي علـى سـلوى التـي طـوى كلامـه عنهـا أنهـا منقذتـه مـن غربـة أمي، ونزقها، وهي التي ستحقق آماله المستحيلة على أمي تحقيقها.

بجانبهـا كان غريبـا يجلـس، هـو نفسـه الغريـب الـذي صادفتـه بحانبها أيضا هناك بالمستشفى.

مؤكـد هـو العريـس المنتظـر. لـم تخـف، ولـم تضطـرب مـن زيارتي المفاجئة.

أشارت عليه بهدوء يشبه البرود قائلة: ابن عمي...

لـم أتركهـا تكمـل، ولـم أواجههـا بمـا سـمعته، ولـم أسـأل هـل كانـت تسـتضيفه فـي وجـود أبـي، وهـل كان يعلـم قصتهمـا، أم كان غافلا.

بمـاذا تفيـد إجاباتهـا علـى أسـئلتي الآن، ومـا يدرينـي بصدقهـا، هـل أدور فـي دائـرة التحقيقـات كممثل ادعـاء، وهـي المتهـم ونبيلة الشاهد، وابن عمها الدفاع.

مـاذا سـأجني، غيـر اسـتنفاذ القليـل الباقـي مـن قدرتـي علـى تحمـل الصدمـات، إنهـا شـوكة فـي حلقـي، لا أسـتطيع بلعهـا، ولا أقـدر علـى لفظهـا، ومـا يضنينـي؛ أن أبـي هـو مـن وضـع بيـده تلك الشوكة في حلقي، وتركني أتألم.

- جئت اليوم لاصطحاب أختاي كما الاتفاق.

لا تجهدي نفسك بجمع أغراضهما، لن أحمل معي من هنا شيئا.

سأتحملهما منذ تلك اللحظة في كل شيء، تستطيعي الاستمتاع بوقتك واللحاق بما فاتك من الآن، قد أصبحتِ طليقة، وقد زال عنك عناء مسؤليتك تجاه ابنتيك.

لا أدرِ إن كانت كلماتي مؤثرة بالقدر الكافي، هل وخزها ضميرها، أو شعرت بذنب؟

لايهمني، إلا أني كنت في غاية السعادة وأنا وسط يارا، ومها وكل يد تمسك بها واحدة بقوة، وحرص ألا تفلت.

خلصتهما من أمهما، واستطاعا دون أن يدركا تخليصي من اضطرابي وإحباطي من العالم، ومن نفسي، ولو بشكل مؤقت.

تسوقنا، إشتريت لهما ولي ملابس، أحذية، وأشياء أخرى.

رجعنا البيت محملين بالكثير من المرح والأكياس، كانتا تضحكان من أعماقهما، دون سبب واضح لي سوى الهناء التام، وراحة البال التي أفتقدها طوال عمري، لاحظت أنهما نسيا أمهما، أو لم تسألا عنها.

هل حدثتهما بشأن انتقالهما للعيش بعيدا عنها، هل استطاعت، هل استسلما؟

رغم عدم تشابه الظروف، أجد وجه شبه بيني وبين هاتين.

تمنيت ألا تلاقيا متاعبي، وألا تصادفا خيباتي.

قضيت أسبوعا معهما، أشاركهما اللحظات، نطبخ، ننظف، نرتب، نأكل.

كل شيء جميل، ممتع، لكن كنت خائفة، مسؤوليتهما ليست طعام فقط، الحياة أوسع، والتربية أكبر من ذلك.

لا أستطيع حكاية قصة مفيدة، لا أقوى على فض اشتبكاتهما، صحيح أرمقهما بنظرةٍ حادةٍ، فتتوقفا خجلا، إلا أني لا أكسبهما موعظة، أو حكمة، وخبرة.

كلما تأملتهما، رأيتني مثلهما أريد من يوجهني، ويرشدني.

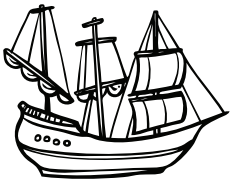

(18)

إختيار الطريق... نهاية الرحلة

كل يوم يمر؛ يؤكدُ لي؛ أن الرحيل هو الحل، لابد من إغراق غربتي الصغرى في غربة أكبر؛ ليمكنني المضي نحو المستقبل.

وربما كنت أحتاج من يقول لي أني على خطأ، أكثر ما كنت أحتاج من يؤكد لي أني على حق.

استأجرت سيارة، حملت نفسي والطفلتين ومتاعهما، واتجهنا إلى ضحى.

نامت الطفلتان بالخلف، وظل السائق مثبت النظر للأمام كأنه على موعد مع الطريق.

رأيت ضحى تغلق بابها في وجهي، وأختاي. تطردني رافضة مساعدتي، ورعايتهما.

مؤكد أخبرها ابنها عن رفضي له في المرة الأولى، والثانية.

مؤكد سوف تفكر في الإنتقام.

ما الذي يجبرها على التمسك بي، في حين أقطع أنا بسهولة ما يربطني بهم؟!

لكن هل تعتقدين ذلك يا ضحى؟ هل تقتنع بذلك يا إختيار؟

روحي العارية التائهة، التي بحثت كثيرا عن ملجأ يحميها، فلم تجد، ظلت تقاوم الغربة سنوات طويلة، دون أن يشعر بها أحد.

هذه الروح لم تعلن استسلامها بعد، سوف تظل باحثة عن أمنها في بقعةٍ ما؛ لتستريح. بأقصى سرعة تود فقد ذاكرة الماضي الذي وخزها، وآلمها وخزه منذ البداية الأليمة التي فتحت فيها عيوني على صراع مرير، غير محتمل، وانفصال بين أكثر الناس اقترابا مني، وبقيت أنا الخيط الوحيد الذي يشدهما ويجذبهما لبعضهما.

حتى أجهدت الروح المسكينة.

التعالي فوق نظرات الخادمة، الجيران، الأقارب، المقربين، الزملاء، وضعفي القوي أمام أعينهم، والعمل الدائم على وأد كلماتهم عند حدود شفاههم؛ استنفذ طاقتي، وقدرتي على الاحتمال

أحلام اليقظة التي تصورت فيها دوما شفقة، وعطف من حولي لكوني من المساكين الذين يتوجب خروج ذكاة من بقايا حبهم، وعواطفهم؛ لتأكدهم أني أشد المحتاجين لها، فتسربلت القسوة، العناد، وتظاهرت بالامبالاة. أليس هذا كله كاف؛ ليشفع لي عندكم، ويمنح أفعالي حجة قوية لديكم؛ للتسامح.

أحيانا تبدو لي ضرورة استعادة طريقي من أوله، أقسمه كما يتراءى لي ماضي، حاضر، مستقبل.

ماذا لو يمكنني ذلك؟

ماذا لو بإمكاني أن أحيا من جديد حياة أخرى، أمل البداية الجديدة، لا يهم إسقاط عشرون عاما من عمر مُعذب، وإلقائها في كيس، ثم غلقه، ورميها بنهر جارٍ. ثم البدء من جديد.

أعود أدراجي، أرغم ذلك السائق الذي يشبه التمثال، أن يعود من حيث أتى بنا، ألقي هاتين لأمهما من جديد، أخبرها أني رجعت في وعدي الذي قطعته على نفسي، وأنها يجب أن تتحمل مسؤولية ابنتيها، ربما ساعتها هرب حبيبها من أقرب نافذة، وتظل هي بلا زواج بسبب فقرها وابنتيها، وتتباهى أمام الناس أنها تحفظ ذكرى زوجها فلا تتزوج بعده، وترتدي وشاحا أبيضا، وتتمنى أن تجدني لتقتلني.

وأشق أنا طريق جديد بين ناس غرباء، أقتني كلبا، أتحدث معه، فلا يفهمني، ويشتكي هو لي بعض معاناته فلا أفهمه.

- لقد وصلنا، أليس هو العنوان؟

قالها في نفس اللحظة التي تأرجحت فيها بين العودة، والبقاء. تكملة الطريق، التقهقر. النجاة، والأسر.

تُرى أي طريق في آخره نجاتي؟ أتمنى المعرفة دون عناء السير في أحدهما. أريد مَن يخبرني بالنهاية منذ البداية.

لكن المؤكد، أن الطريق الذي سأسلكه لا رجعة فيه.

كان والد إختيار لدى الباب...

- أهلا ياسمين، دائما تحضرين ولا أراكِ، لم أقابلك منذ مدة.

دائما استقبالهم الحسن يقلب موازين خيالي. تلقاني والد إختيار بحبٍ زائد عن كل مرة، كان يحاورني وعينيه تبحث داخل السيارة

عن الفتاتين، أخبرته ضحى بكل تأكيد، وواضح من لهفته ترحيبه بهما.

لم يستطع الرجل في النهاية تمالك نفسه؛ سألني مباشرةً

ما اسمهما؟

وتركني قبل الرد وتوجه إليهما وأخذ يسألهما، ويمازحهما، ثم أخرجهما من الداخل، وأمسك بهما، ونسيني، واختفى

داخـل البيـت، كأنـه وجـد ضائعـا منـه، وراح يخبـر زوجتـه تسـبقه فرحته.

كنـت أسـاعد السـائق فـي إخـراح الحقائـب، وفجـأة سـبقتني يد إختيار لحملها عني.

شـعرت بخجـل وانزعـاج مـن وجـوده، تمنيـت أن لا أراه، كنـت أشفق على نفسي من مواجهته.

لـم أتكلـم مطلقـا، وكان هـو أيضـا يتظاهـر بالامبـالاة، لحظتـه، لكنـي لـم أجـرؤ علـى بـدء الحديـث، كلانـا تظاهـر بالإنهمـاك فـي إخراج الحقائب، رغم قلتها وبساطة كتلتها.

ظهـرت بدريـة، وأخـرى أصغـر منهـا، وتولـت الإثنتـان المهمـة بسـهولة. ظننـت إختيـار سـيختفي لكنـه بقـي، وتملكنـي الحـرج لأول مرة في حضوره.

كان منقذي دائما من أي مأزق، وملجأي إن حيرني اختيارين.

وقفنـا قبالـة بعضنـا كغربـاء، لـم أحتمـل صمتـه، وارتباكـي فـي وجـوده، وتجهمـه وتعقـد ملامحـه، فـأدرت عنقـي للسـائق الـذي كان ينتظـر أمـر منـي بالذهـاب أو البقـاء، قلـت لـه سـأعود معـك حـالا، ووضعـت يـدي علـى مقبـض البـاب الخلفـي للعربـة، كانت هـذه الخدعـة منـي مـا جعلـت إختيـار ينطـق أخيـرا ألـن تنتظـري أمي؟

هـا هـو إختيـار الطيـب الوديـع يظهـر، ويتخلـص مـن ذلـك الجـاف القاسـي، لـم أكـن أنتـوي بالطبـع الرجـوع دون إذن السـيدة الكريمـة التـي اسـتضافت أختـاي، ولـم يكـن فـي حسـاباتي أن أرحـل مـع السـائق، لكني فقـط كنـت أود مـن إختيـار أن يتوسـل لي أن أظـل، شـئ بداخلـي كان يـود أن يسـمع إختيـار يجـدد حبـه ورغبته الملحة في القرب.

تظاهـرت أنـي أفكـر، وأتخـذ القـرار، ثم قلـت: أنتظـر قليـلا إذًا، من فضلك إبقَ معي قليلا، سأعود معك.

حدثـه إختيـار بحـزم: لا عـد أنـت. فنظـر الرجـل لـي، فأومـأت برأسي موافقة.

هذا هو إختيار بالضبط، الذي لا أريده يتغير.

وقفنا ننظر للرجل وهو يدير مقدمة سيارته، ويبتعد.

تمنيـت أن يمسـك يـدي كالمـرة السـابقة ويدعونـي للفنـاء المتسع خلف البيت.

لكنه أشـار ناحيـة سـلم منزلهـم الرئيسـي الـذي دخلت عبـره في أول مـرة، تذكـرت تفاصيـل المـرة الأولـى، تذكـرت أبـي، والحـرج الـذي شـعرت بـه يومهـا، بعـد انتهـاء الزيـارة، نفـس الحـرج الـذي أشـعر بـه مـن إختيـار، لا يبـرح ذاكرتـي مـا قالـه فـي لقائنـا الأخير، وكيف تركته بمنتهى الصلف.

على استحياء سألته أن ننحرف ناحية الفناء جانب البيت، بدلا من استقبالي بالداخل، أريد أن أتنفس بحرية، وكنت قد لمحت بقايا شعاع شمس يتأهب للرحيل من تلك البقعة، كانت الساعة الثالثة تقريبا، وكان الجو الخريفي منعش أردته أن يبدد الثقل المربوط بقلبي.

حاول إختيار إخفاء سعادة غمرته عندما شعر أني لا أريد استقبال رسمي.

أشار لي على أريكة قديمة، وقبل أن أجلس، حلقت في الفراغ المحيط لحظة، تابعت فيها طائر يختفي بعيدا بين السحب، خفق قلبي برؤيته، أردته يأخذني معه، إلى حيث ذهب.

كان عليّ أن أبدأ الكلام، يتضح أن إختيار غاضب، ولا ينتوي الحديث، ولولا كرم أخلاقه، وتربيته الراقية، لما استقبلني من الأساس.

- أنا مدينة لك باعتذار، أو باعتذارين

- لمَ

- بسبب رفضي لك.

- لو أني متأكد من قراراتك وصدقها، وتصديقك لها، لو أني لا أدرك كم تائهة أنت لا يتسنى لك الإستقرار، لما كنت

معـكِ الآن. أعلـم أنـكِ تبغيـن الفـرار، تعانيـن الغربـة فـي أكثـر الأمكنة قربا ودفئا.

أنا أفهمـكِ أكثـر منـك ياسـمين، وأتأكد مـن أن حلول مشـكلتك هـو حلولـك بيـن مـن يحبونـك، وتحبيهـم، هنـا فقـط، فـي بلدتك، مدينتـك الصغيـرة، كفـاك غربـة عزيزتـي، آن الأوان لاسـتقرار، وراحة.

كان إختيـار صادقـا فيمـا قالـه بخصـوص غربتـي، وآلامـي، ورغبتي في الفرار.

لكنـي لسـت متأكـدة مـن أن اسـتقراري هنـا فـي تلـك المدينـة القاسية سوف يجلب لي الراحة.

أثـق فـي رؤيـة إختيـار للأشـياء، والمواقـف؛ فهـو دقيـق، محلـل ماهر.

لكن هل فعلا يفهمني أكثر مما أفهم نفسي؟

ظهـرت ضحـى مـع ابنتيهـا الجديدتيـن، يتقاذفـن كـرة صغيـرة، أشـارت لـي تحيينـي، أول مـرة لا تهتـم بسـلام حـار، وقبـلات، لاحظـت الفتاتيـن ترتديـا ملابـس أخـرى غيـر التـي ابتعتهـا لهمـا، يبـدو أن ضحـى كانـت قـد جهـزت لهمـا أشـياء كثيـرة. يبـدو لـي أيضـا أن سـلوى قـد فعلـت خيـرا حيـن تخلـت عـن بناتهـا، لكـن هذا لن يمنعهما من احتقارها حين تفهما الحقيقة.

كان إختيـار يراقـب المشـهد مـن بعيـد، شـعرت أنـه يرانـي مـن الداخل، ينفذ للعتمة التي تحيط بقلبي، فيضيئها بعينيه.

كان علي اتخاذ قرار الرحيل، فلم يعد لي مكان.

لكنـي لـم أقـدر علـى التزحـزح. كان إختيـار يشـدني، يثبتنـي في مكاني بقوة سحرية.

اقتربـت ضحـى ببـطء، وعيناهـا تتلفتـان لإبنتيهـا تحرسـهما، ثـم وقفت في منتصف المسافة بيني وبينهما

- ألا يمكنـكِ البقـاء معنـا، أظنـك هنـا سـوف تنسـين معظـم متاعبكِ.

نظـرت سـاعتها لإختيـار، لـم يـدر رأسـه عنـي، كان يتوسـل إلي كدت أسمع توسله دون أن ينطق..

خيل لـي سـمعت صـوت مباغـت، كان الطائر الـذي اختفـى بين السحب يعود من جديد.

– ربما يبقى وقتا لأفكر في الأمر.

ابتسمت ضحى، وعادت للعب.

سرت باتجاه إختيار الذي هدأ احتقانه.

مشـينا حتـى آخـر حديقتهـم المهجـورة، أعـدت عليـه رؤيتي في استغلالها، وزراعتها، ووضع أرجوحة.

كان إختيـار يسـمع دون تعقيـب، تكلمـت كمـا لـو كنـت اتخذت القرار بالبقاء فعلا؛ بدا سعيدا؛ فتركني أخطط بحرية.

توقفت فجأة وباغته بسؤال، كنت أسأله في الحقيقة لنفسي

هل يمكن أن يُتخذ قرار مهم في لحظة؟

لـم أنتظـر إجابتـه، ولا إجابتـي، كان سـؤالا عرضيـا، ربما نسـيته، وأنا على مائدة ضحى، بجانب إختيار، والعائلة..

تمـــــت،،،،

الفهـــــرس

1- بداية الرحلة 3

2- حرب وندم 9

3- عودة مؤقتة 17

4- الخاسر الوحيد 27

5- الموت 39

6- حياة جديدة 51

7- درس جديد، عائلة جديدة 73

8- عزفٌ بائس 81

9- الرغبات 97

10- حكايات 109

11- يمنى 117

12- حالة أخرى 143

13- زيارة 155

14- عيد ميلاد غير سعيد 163
15- عودة في منتصف الليل 175
16- أختان 187
17- نية، وقرار 197
18- إختيار الطريق... نهاية الرحلة 215